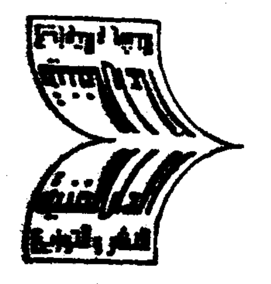
١٢

مــن ألفاظ اللغة
فى القرآن الكريم

الطبعة الأولى

من ألفاظ اللغة في القرآن الكريم

للدكتور
أحمد مصطفى أبو الخير
كلية التربية - دمياط



الإهـــداء

إلى ابنى محمد الذى رافقنى فى كتابة هذا العمل خطوة خطوة وكلمة كلمة ، لشدة محبته لأبيه وتعلقه به أهدى هذا العمل حتى يتذكر أباه دائماً .

د. أحمد أبوالخير

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، وعليه نتكل ، فهو نعم المعين .

« من ألفاظ اللغة فى القرآن الكريم » هو عنوان هذا الكتاب الذى نقدمه للقارئ الكريم ، وللقارئ أن يعجب من هذا العنوان ، أو يتساءل : هل فى القرآن الكريم من ألفاظ اللغة ؟ ونحن نجيب القارئ عن تعجبه وتساؤله بهذا الكتاب الذى نضعه بين يديه ، ولكننا نشير بادئ ذى بدء إلى حقيقة هامة ، ينبغى ألا تغيب عن أذهاننا ، وهى أن القرآن الكريم ليس كتاباً فى اللغة أو الأدب أو الطب أو الرياضة أو الكيمياء ، أو غيرها من العلوم ، وإنما هو كتاب هداية من الخالق إلى عباده المخلوقين ، من لدن النبى الخاتم — صلى الله عليه وسلم — إلى أن تقوم الساعة التى علمها عند ربى ، إنه كتاب هداية من رب الإنسان إلى الإنسان بلغة الإنسان .

وفى حديث الخالق إلى مخاليقه نجد بعض الإشارات والتلميحات التى يمكن أن تفيدنا فى مجال الدراسة اللغوية ، ومن ثم فإننا نبحث عن مواضع ألفاظ اللغة فى القرآن ، ونرى كيف استخدمها الكتاب الكريم .

مثال ذلك أن القرآن الكريم استخدم كلمة : (اللسان) للتعبير عن لغة الإنسان ، كما في قوله تعالى : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » (١) في حين أنه استخدم كلمة أخرى للتعبير عن لغة الطير ، هى (منطق) كما في قوله تعالى : « وورث سليمان داود ، وقال : يا أيها الناس ، علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء ، إن هذا لهو الفضل المبين » (٢) . وهكذا يتبين أن هناك فوارق عديدة وفواصل كبيرة بين : (لسان) الإنسان ، و : (منطق) الطير ، وهو ما سنفصله في موضعه .

وعليه فإن عملنا سوف يتمثل في تتبع ألفاظ اللغة ــ أى لفظ ــ في القرآن الكريم ، ثم محاولة الاستفادة من الإلماحات والإشارات الناتجة عن استخدام هذا اللفظ أو ذاك ، كما رأينا في : (لسان ــ منطق) وكما سنرى في باقى الألفاظ ، مثل : (شفتين ــ حناجر ــ همس ــ جهر ــ رمز ــ صوت ..) إلخ .

وهنا يجب أن نشير إلى أن القرآن نزل للعالمين منذ البعثة إلى أن تقوم الساعة ، ومن ثم كانت لغة القرآن لغة رمزية ، أى ذات أبعاد مختلفة وجوانب متعددة ، لكى يصلح كل بعد وكل جانب لجيل ما من الأجيال ، و يبقى للآخرين ما يختصون بفهمه وإدراكه من الزوايا (٣) والمعانى ، ومن ثم كان الكتاب الكريم : (لا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى (٤) عجائبه) .

وهذه الدراسة تحاول الإفادة من بعض هذه الأبعاد ، أو إن شئت فقل البعد اللغوى ، وأياً ما كان الأمر فإن دراستنا تهدف إلى :

١ ــ ربط الدراسة اللغوية بالدراسة القرآنية : فقد كان هذا الكتاب الكريم أساس نهضة هذه الأمة وحضارتها ، بل كان أساس وجودها الفاعل على خريطة هذا العالم ، وما كان لهذه الأمة علم ولا درس ولا قراءة ولا كتابة قبل : « اقرأ باسم ربك الذى ... اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم » (٥) .

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٠٣ .

(٢) سورة النمل ، الآية ١٦ .

(٣) الإسلام والإنسان للدكتور على شريعتى ، ص ٥ .

(٤) مسند الدارمى ، باب فضل من قرأ القرآن .

(٥) سورة العلق .

فالدرس اللغوى على كافة مستوياته الأصواتية والصرفية والنحوية والدلالية ما ظهر إلى الوجود إلا بسبب القرآن كى يقرأ قراءة صحيحة و يفهم فهماً دقيقاً ، ومن ثم ارتبط هذا النوع من الدرس بسببه وهدفه وأصبح من غير الممكن أن نتصور جانباً من هذا النوع لا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكتاب الكريم ، وإذا كان البعض يمكن أن يشك فى هذا الارتباط الوثيق أو يمكن أن ينساه للحظة أو سويعة فإن هذا الكتاب يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك حقيقة العلاقة بين الدرس اللغوى و بين القرآن الكريم .

٢ــ بحث جذور المصطلح اللغوى : إن المصطلح بشكل عام والمصطلح اللغوى بشكل خاص يمثل مشكلة هامة فى لغتنا العربية ، فإن الاختلاف فى المصطلح الواحد بين أقطار العالم العربى يعتبر من السنن المؤكدة ، خذ مثلاً مصطلح : (علم اللغة) ترى البدائل والمستخدمات غير كثيرة : (فقه اللغة ــ اللغويات ــ أصول اللغة ــ اللسانيات ــ الألسنية (٦) ... إلخ) .

بل إن الاختلاف يصل إلى كيفية استخدام المصطلح الواحد ، وتحديد معناه ، حتى إن هذا الاختلاف لم ينج منه تعريف : (المصطلح) نفسه ، وقد ناقش هذه القضية أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين فى كتابه القيم : (العربية لغة العلوم والتقنية) ثم عرف المصطلح بأنه : (اللفظ أو الرمز اللغوى الذى يستخدم للدلالة على مفهوم علمى أو عملى أو فنى ، أو أى موضوع ذى طبيعة خاصة) (٧) .
ومن ثم فإن هذا الكتاب يهدف أيضاً إلى المساهمة فى علاج مشكلة المصطلح اللغوى ، حيث نحاول إبراز الجذور المعجمية والقرآنية لكثير من المصطلحات اللغوية ، مما يجعلنا على وعى كامل بأصالة هذه المصطلحات ، وهو ما يدفع نحو الاتفاق على استخدامها ، وعدم اطراحها أو استبدالها بغيرها .
ففى الحديث عن : (الهمس ــ الجهر) مثلاً نرى أن كليهما مرتبط بالصوت ،

---

(٦) مشكلة المصطلح العربى للمؤلف بمجلة كلية التربية بدمياط ، ١٩٨٨ م .

(٧) انظر ص ١١٨ .

تأمل قوله تعالى: «وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً (٨) ــ لا يحب الله الجهر بالسوء (٩) من القول» وهكذا.

٣ــ دراسة جزء هام من المعجم القرآني: إن دراسة المعجم القرآني بشكل عام يؤدى إلى فهم أعمق لهذا الكتاب الكريم وأدق، ومن ثم فإن هذه الدراسة ــ وإن كانت تقتصر على ألفاظ اللغة ــ إلا أن هذه الأخيرة تمثل جانباً هاماً من المعجم القرآني، و يترتب على دراسة هذا الجانب ما يلى من النتائج:

(أ) إعادة النظر فى بعض الألفاظ التى ثبت أنها تستخدم فى غير موضعها، أو بمعنى آخر يساء استخدامها إلى حد مشين، وغير مقبول، ونعطى هنا مثالين فقط:
ــ هناك فرق بين: (عجمى جمع عجم) مثل عربى وعرب، و بين (أعجم وجمعها أعاجم) أو (أعجمى وجمعها أعجمون) فالعجم غير العرب، أما الأعجم والأعجمى فهو من لا يفصح ولا يبين، ولو كان عربياً ومع هذا فإنك لا تعدم من يستخدم: (أعاجم) فى معنى: (العجم) وهلم جرا.
ــ هناك فرق بين معانى الكلمات الآتية: (العرب ــ الأعراب ــ البدو) فالبدو من سكنوا البادية، والأعراب هم نخالة العرب، وهم وإن كانوا من البدو، إلا أنه ليس كل البدو أعراب، فى حين أن كل الأعراب بدو، أما العرب فهم المتكلمون بالعربية، من بدو وحضر، من سكان الجزيرة أو من غيرها، و برغم هذا تجد من يطلق كلمتى (عربى ــ عرب) على البدو فقط، أو على سكان الجزيرة فقط، أو من يطلق: (أعرابى ــ أعراب) على: (البدوى ــ البدو).

(ب) و ينعكس هذا الفهم الخاطئ على ترجمات معانى القرآن الكريم، ففى ترجمة عبد الله يوسف إلى الإنجليزى لا يفرق بين البدو و بين الأعراب،

---

(٨) سورة طه، الآية ١٠٨.

(٩) سورة النساء، الآية ١٤٨.

إذ يترجم الأخيرة إلى : desert Arabs (١٠) كما يترجم الأعجمى إلى : notably Foreign (١١) والأعجميين إلى : (non — Arabs (١٢)) (١٢) ، فإذا كان من غير الممكن إيجاد كلمة إنجليزية تعبر عن المعانى المطلوبة لهذه الكلمات فإنها تكتب بالحروف اللاتينية ، ثم يشرح معناها فى الهامش .

ومن ثم فإن ترجمات القرآن الكريم إلى أية لغة من اللغات يجب أن تراجع باستمرار من قبل علماء العربية حتى تكون أكثر تمثيلاً للمعانى القرآنية ، صحيح أن المترجم يتأثر كثيراً بأقوال المفسرين ، بحيث تبدو الترجمة وكأنها ترجمة للتفسير وليس ترجمة للكلمة نفسها ، ففى قوله تعالى : « وخشعت الأصوات للرحمن ، فلا تسمع إلا همساً » ترجمت الكلمة الأخيرة إلى The tramp of their feet as they march (١٣) وهى ترجمة أمينة لما جاء فى الكشاف : (خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر (١٤)) .

والأمر عند هذا الحد ربما يكون صحيحاً مقبولاً إلا أننا لا نملك أنفسنا من الدهشة والعجب حين نرى الترجمة بعيدة بعد المشرقين عن المعانى الحقيقية التى تحملها الآيات ، وهاك مثال واحد أعطيه للقارئ الكريم :

فى حروف المعجم التى تفتتح بها بعض السور : (الٓمٓ — الٓر .. إلخ) لا مجال لكتابتها بحروف لاتينية مفردة (A. L. R. — A. L. M) وهو ما كان فى ترجمة عبد الله يوسف (١٥) ، ولكنه فى مواضع أخرى أصاب كبد الحقيقة ، وذلك فى مثل : (Sad ، Ha — Mim) ولا ندرى لماذا غير الرجل طريقته ، فلم يلتزم بنهجه فى : (حمٓ — صٓ) وغيرها ، وكان هذا هو المنتظر منه .

---

(١٠) انظر ص ٥٨٧ ، ١٤٠٧ ، ١٣٩٥ .

(١١) بمعنى الأجنبى الصراح ، انظر ص ٧٤٩ .

(١٢) ص ٩٧٠ .

(١٣) ترجمة عبد الله يوسف ، ص ٧١٣ .

(١٤) ٤٤٧/٢ .

(١٥) ص ١٧ ، ٥٥٠ .

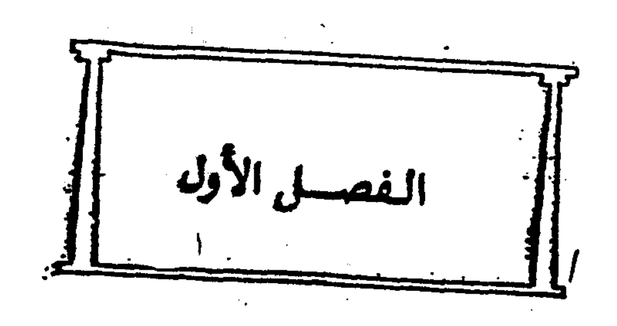
أما فى ترجمة أبى بكر غومى إلى الهوسا فإنه التزم النهج الأول حتى إنه جعل : (Y.S T.H) فى مقابل (طه ـ يس) وهكذا فعل ببقية حروف المعجم أوائل السور، وكان عليه أن يلزم النهج الثانى الذى فى ترجمة عبد الله يوسف .

إننا لا يجب أن نتعامل مع هذه الترجمات وكأنها من الأمور التى لا تعنينا ، بل على علماء العربية وفرسانها أن يداوموا النظر فى هذه الترجمات ، ولا سيما أن لدى الكثير منهم خبرات واسعة ومعرفة عميقة باللغات الأجنبية التى يترجم إليها القرآن الكريم .

على أية حال فسوف يجد القارئ فى هذا الكتاب وصلاً بين التراث القديم و بين الحديث ، ومزجاً بين الدراسة القرآنية واللغوية ، يجد فيه الكثير مما يمتع و يفيد ، فإن كان الأمر كذلك فلله وحده الحمد والمنّة ، وإن كان غير ما نحب ونرتضى فإن الله هو المعين ، والموفق إلى تسديد الخطى ، وهو الهادى إلى سبيل الرشاد .

أحمد مصطفى أبو الخير





اللسان والمنطق واللغة

وردت كلمة : (اللسان) مفردة ومجموعة فى القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة ، نذكرها حسب ورودها فى (1) رواية حفص (2) عن عاصم (3) ، كما يلى :

١ - « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » ٢٤ / النور .

٢ - « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين » ٨ ، ٩ / البلد .

٣ - « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه » ١٦ ، ١٧ / القيامة .

٤ - « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون » ٧٨ / المائدة .

٥ - « سيقول لك المخلفون من الأعراب: شغلتنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » ١١ / الفتح .

٦ - « إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » ١٥ / النور .

٧ - « وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ، فأرسله معى ردءا(4) يصدقنى » ٣٤ / القصص .

---

(1) نعتمد بشكل أساسى على رواية حفص عن عاصم ، فإذا احتجنا لذكر رواية أخرى أشرنا إليها .

(2) حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدى الكوفى (٩٠ ــ ١٨٠ هـ) كان أعلم أصحاب عاصم بقراءته . النشر ١ / ١٥٦ .

(3) عاصم بن أبى النجود الكوفى ، أحد القراء السبعة (ت ١٢٧ هـ) النشر ١ / ١٥٥ .

(4) أى ينصره و يشد عضده ، أساس البلاغة للزمخشرى مادة : (ردأ) .

٨- « واحلل (٥) عقدة من لسانى يفقهوا قولى » ٢٧ / طه .

٩- « و يضيق (٦) صدرى ، ولا ينطق لسانى » ١٣ / الشعراء .

١٠- « ووهبنا لهم (٧) من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا » ٥٠ / مريم .

١١- « واجعل لى (٨) لسان صدق فى الآخرين » ٨٤ / الشعراء .

١٢- « ولا تقولوا (٩) لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال ، وهذا حرام » ١١٦ / النحل .

١٣- « وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم (١٠) الحسنى » ٦٢ / النحل .

١٤- « وإن منهم (١١) لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب » ٧٨ / آل عمران .

١٥- « واسمع (١٢) غير مسمع ، وراعنا ليا بألسنتهم ، وطعناً فى الدين » ٤٦ / النساء .

١٦- « إن يثقفوكم يكونوا لكم (١٣) أعداء ، و يبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون » ٢ / الممتحنة .

١٧- « فإذا ذهب الخوف سلقوكم (١٤) بألسنة حداد » ١٩ / الأحزاب .

١٨- « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ٤ / ابراهيم .

١٩- « لسان الذى يلحدون (١٥) إليه أعجمى » ١٣٠ / النحل .

---

(٥) دعاء موسى ، عليه الصلاة والسلام.

(٦) أى صدر موسى ، عليه الصلاة والسلام.

(٧) ابراهيم واسحاق و يعقوب عليهم السلام.

(٨) دعاء إبراهيم عليه السلام .

(٩) النهى موجه لليهود .

(١٠) المشركون .

(١١) اليهود .

(١٢) الحديث موجه من اليهود إلى سيد الخلق ، صلى الله عليه وسلم .

(١٣) الحديث للمؤمنين.

(١٤) الحديث عن المنافقين .

(١٥) يميلون قولهم عن الاستقامة إليه ، الكشاف ٢ / ٣٤٤ .

٢٠- « وهذا لسان عربي مبين » ١٣٠ / النحل .

٢١- « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » ١٩٢ ـ ١٩٤ / الشعراء .

٢٢- « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً » ١٢ / الأحقاف .

٢٣- « فإنما يسرناه (١٦) بلسانك لتبشر به المتقين » ٩٧ / مريم .

٢٤- « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » ٥٨ / الدخان .

٢٥- « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » ٢٢ / الروم .

وبعد إنعام النظر في الآيات السابقات والرجوع إلى بعض كتب التفسير واستشارة بعض المعجمات حول معنى كلمة : (اللسان) نستطيع القول بأن هذه المواضع الخمسة والعشرين تنقسم إلى خمسة أقسام ، كما يلي :

١- اللسان بمعنى العضو المعروف في الفم : وهو ما جاء في الموضع الأول .

٢- اللسان عضو من أعضاء النطق : وقد جاء في الموضعين الثاني والثالث .

٣- اللسان يعني ما أنزل على بعض أنبياء الله : وذلك في الموضع الرابع .

٤- نسب إلى اللسان :

(أ) القول والتلقي : الأول في الموضع الخامس ، والثاني في السادس .

(ب) الفصاحة أو العقدة وعدم الانطلاق : فالأول في السابع ، والثاني في الثامن ، والثالث في التاسع .

(جـ) الصدق أو الكذب واللي : فالأول في الموضعين العاشر والحادي عشر ، والثاني في الموضعين الثاني عشر والثالث عشر ، والثالث في الرابع عشر والخامس عشر .

(د) البسط والحدة : الأول في الموضع السادس عشر ، والثاني في السابع عشر .

٥- اللسان بمعنى لغة القوم : وهو ما وجدناه في المواضع الثمانية المتبقية ، أي من الثامن عشر إلى الخامس والعشرين ، وهاك تفصيل ما أجملناه :

(١٦) القرآن الكريم .

أولاً ـــ اللسان بمعنى العضو المعروف فى الفم :

ولم يكن هذا إلا فى موضع واحد من الكتاب العزيز، هو قوله تعالى : «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» فالآية سوت هنا بين الألسن والأيدى والأرجل، دون الإشارة إلى شىء من دور اللسان بوصفه عضواً من أعضاء النطق، اللهم إلا البدء به، وتقديمه على باقى الأعضاء.

جاء فى تفسير(١٧) ابن كثير: ضحك الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ حتى بدت نواجذه، ثم قال: أتدرون مم أضحك؟ قال: من مجادلة العبد لربه، يقول: يارب ألم تجرنى من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز علىّ إلا شاهداً من نفسى، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، والكرام عليك شهودا، فيختم الله على فيه، ويقال لأركانه انطقى، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعدا لكن وسحقا، فعنكن كنت أناضل(١٨).

فنحن هنا أمام مرحلة تعطل فيها أعضاء النطق تعطيلاً كاملاً، وتمنع من ممارسة مهامها التى اعتادتها، وأهم هذه الأعضاء بالطبع هو اللسان، ومن ثم بدأ به القرآن الكريم.

وقد عبر الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ عن ذلك التعطيل بقوله: «فيختم الله على فيه» وهو ما نجده أيضاً فى قوله تعالى: «اليوم نختم على أفواههم، وتكلمنا أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون» (١٩) ولعلنا نعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

ثانياً ـــ اللسان عضو من أعضاء النطق :

وسوف نرجئ الحديث فى هذه النقطة إلى حيث نتناول أعضاء النطق.

(١٧) ٣/٢٧٦.

(١٨) وعن ابن عباس قال: إن المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا نجحد، فيجحدون، فيختم على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثاً. انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٧٧.

(١٩) سورة يس، الآية ٦٥، وفى سورة فصلت: «ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون.» راجع الآيات ١٩ ـــ ٢٣.

ثالثاً ـ اللسان يعني ما أنزل على بعض الأنبياء :

وكان هذا في موضع واحد ، هوقوله تعالى : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون » أى أن الله نزل لعنهم في الزبور ـ على لسان داود ـ وفي الإنجيل ـ على لسان عيسى (٢٠) ـ فإنه أنبياء اليهود الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم هم الذين تولوا لعنهم ، وطردهم من هداية الله ، فسمع الله دعاءهم ، وكتب السخط واللعنة على بني إسرائيل (٢١) .

رابعاً ـ ما نسب إلى اللسان :

نسب إلى اللسان في الكتاب الكريم عشر صفات ، نقسمها إلى أربعة أقسام ، كما يلي :

١ ـ القول والتلقي :

نسب إلى اللسان مجرد القول فقط ، وهو ما يعني النفاق ، أى عدم مطابقة ما يقول اللسان مع ما في القلب ، وهو ما جاء في قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلتنا أموالنا ، فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » يقول ابن كثير(٢٢) : وذلك قول منهم ، لا على سبيل الاعتقاد ، بل على وجه التقية والمصانعة والنفاق ، ولذا قال الله : « بل كان الله بما تعملون خبيرا » (٢٣) .

فهذا تكذيب لهم في اعتذارهم ، وأن الذى خلفهم ليس ما يقولون وإنما هو الشك في الله والنفاق ، وطلبهم للاستغفار أيضاً ليس بصادر عن حقيقة .

ومن ناحية أخرى نسب إلى اللسان التلقي ، في قوله تعالى : « إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم » الهاء في تلقونه تعود على حديث الإفك الذى ابتلى به بعض المسلمين ، عن أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها .

---

(٢٠) ابن كثير ٢ / ٨٢ .

(٢١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ٨٢٠ .

(٢٢) ٤ / ١٨٩ .

(٢٣) تكملة الآية المذكورة .

ومعنى: (تلقونه بألسنتكم ، لسان يتلقى عن لسان ، بلا تردد ولا ترو، ولا فحص ولا إنعام نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان ولا تتملاه الرؤوس ، ولا تتدبره القلوب (٢٤) ، وفى الكشاف : (تلقونه يأخذه بعضكم من بعض ، يقال تلقى القول وتلقنه وتلقفه ، ومنه قوله تعالى : «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه» (٢٥) . الآية ، وتلقونه من لقى بمعنى لقفه ، وتُلْقونه من إلقائه بعضهم على بعض ، وتلقونه وتألقونه من الوَلْق ، وهو الكذب (٢٦) ، وفى حديث على ــ رضى الله عنه ــ قال لرجل : (كذبت ــ والله ــ ولَقْت) فى لسان العرب : الولْق والألْق الاستمرار فى الكذب (٢٧) .

قال الفراء : (روى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها قرأت (تَلِقونه بألسنتكم) .. وهو الولْق فى الكذب بمنزلة إذا استمر فى السير والكذب (٢٨)) و يقول ابن كثير(٢٩) : وقرأ آخرون : (إذ تَلِقونه بألسنتكم) عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها كانت تقرؤها كذلك ، وتقول : (هى من ولْق اللسان يعنى الكذب الذى يستمر صاحبه عليه) ... والقراءة الأولى أشهر، وعليها الجمهور، لكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها .

وقد بحثت عن هذه القراءة فلم أجدها فى السبع ولا فى العشر، ولا حتى الأربع الزائدة عن العشر، ولذا أرجح أن تلك من الحروف التى رويت عن أم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ وعن غيرها من الصحابة مما كان مسموحاً القراءة به على عهد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ضمن إطار رخصة الأحرف السبعة ، وقد فصلنا الحديث عن هذه الرخصة فى رسالتنا (٣٠) للدكتوراه ، فليرجع إليها القارئ إذا شاء .

---

(٢٤) فى ظلال القرآن ٦/ ٨٠ .

(٢٥) سورة البقرة ، الآية ٣٧ .

(٢٦) الكشاف للزمخشرى ، ٣/ ٦٥ .

(٢٧) لسان العرب مادة : (ول ق) .

(٢٨) السابــق .

(٢٩) ٣/ ٢٧٤ .

(٣٠) قراءة الأربعة الشواذ ، دراسة لغوية تاريخية ، مخطوط بدار العلوم .

على أية حال فسواء أكان الفعل تلقى أو ولَق فالمعنى واحد، وهو الكذب، وإن أضيف إلى الثانى معنى الاستمرار ــ وإن كنت أعتبر ما روى عن أم المؤمنين هو شاذ، لا تصح القراءة به الآن ــ ولو عدنا إلى الآية مرة أخرى لوجدنا أن: « تلقونه بألسنتكم » قد فسره وأوضح معناه بقية الآية التى تلى مباشرة، وهى: « وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم .. » الآية.

ومن ثم نستطيع أن نخلص إلى أن اللسان إذا نسب إليه القول مجرد القول ــ أو التلقى ــ كان معنى هذا النفاق أو الكذب، وهو ما يشبه القول بالأفواه، كما رأينا، ولعلنا نعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

٢ ــ عدم الانطلاق والعقدة أو الفصاحة:

نسبت هذه الصفات الثلاث إلى اللسان فى ثلاث آيات كلها تتحدث عن موسى، عليه السلام:

(أ) عدم الانطلاق، فى القرآن الكريم: « قال رب: إنى أخاف أن يكذبون، ويضيق صدرى، ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون » (٣١) تنتاب نبى الله الخاوف من تكذيب فرعون فى وقت يضيق فيه صدره، ولا يستطيع لسانه أن ينطلق، فلا يملك أن يبين وأن يناقش هذا التكذيب و يفنده (٣٢) إذ كان بلسانه عقدة ــ كما سيأتى ــ من أجل هذا دعا ربه قائلاً: (فأرسل إلى هارون).

و يترتب على عدم انطلاق اللسان أن تنشأ حالة من ضيق الصدر بسبب عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام، وتزداد كلما زاد الانفعال فيزداد الصدر ضيقاً (٣٣)، وهكذا.

(ب) العقدة، فى الكتاب الكريم: « قال رب اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى (٣٤) .. » الآيات.

---

(٣١) سورة الشعراء، الآيات من ١١ ــ ١٤.

(٣٢) فى ظلال القرآن، ٦/ ١٩٨.

(٣٣) الظلال، ٦/ ١٩٨ ، ١٩٩.

(٣٤) سورة طه، الآيات من ٢٥ ــ ٢٨.

حاول موسى — عليه الصلاة والسلام — أن يعتذر عن تلك المهمة الجليلة لسببين ، عقدة فى اللسان تمنعه من الانطلاق « ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون » (٣٥) ولكن الله كان قد اختاره لحمل الرسالة ، فلا فكاك ، ولا مناص ، ومن ثم دعا موسى ربه طالباً ما يلى :

— رب اشرح لى صدرى .

— و يسر لى أمرى .

— واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى .

— واجعل لى وزيراً من أهلى ، هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى .

وأجاب رب العزة نبيه إلى ما طلب : « قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى » ولذا كان الأمر : « اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون ، إنه طغى ، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى .. » (٣٦) الآيات .

ولم يكن أمام موسى — عليه الصلاة والسلام — إلا أن يصدع بما أمر به ربه ، وهنا صح ما توقعه نبى الله ، إذ كذب فرعون وأشار إلى عقدة لسان موسى قائلاً : « .. أنا خير من هذا الذى هو مهين ، ولا يكاد يبين » (٣٧) .

وأصل هذه العقدة ما روى من أن موسى — عليه الصلاة والسلام — كان يلعب بين يدى فرعون و بيده قضيب فضرب به رأسه فغضب الفرعون ، وهم بقتله ، فقالت امرأته : (إنه صبى لا يعقل ، وجربه إن شئت) وجاءت بطستين فى أحدهما جمر، وفى الآخر جوهر، فمد موسى — عليه الصلاة والسلام — يده إلى الجوهر، فحولها جبريل — عليه السلام — إلى الجمر(٣٨) ، فوضع جمرة فى فمه ، فاحترق لسانه (٣٩) ، أى جزء منه .

---

(٣٥) سورة الشعراء ، الآية ١٤ ، يشير موسى إلى قتل القبطى الذى كان سبب خروجه من مصر .

(٣٦) سورة طه ، الآيات من ٤٢ — ٤٤ .

(٣٧) سورة الزخرف ، الآية ٥٢ .

(٣٨) الكشاف ، ٢ / ٤٣٢ .

(٣٩) تفسير ابن كثير ، ٣ / ١٤٩ .

وقد ترتب على هذا الجزء المحترق من اللسان ــ وما نراه إلا الجزء الأمامى ــ ترتب عليه ما سمى بالعقدة ، تلك التى فسرت بشيئين ، أولهما اللثغة ، وثانيهما الرُّتة ، فما حقيقة كل ، وأى التفسيرين نرجح ؟

فى مختار الصحاح وأساس البلاغة أن اللثغة تنحصر فى صوتى الراء والسين ، فقط ، قال الأول : (اللثغة فى اللسان أن يصير الراء غيناً أو لاماً ، والسين ثاء (٤٠) ، وقال الثانى : (وهى ــ أى اللثغة ــ قلب الراء غيناً أو ياء ، والسين ثاء (٤١) .

أما ابن منظور فقد أورد تفسيرات عدة للثغة ، إذ قال : (اللثغة أن تعدل الحرف إلى حرف غيره ، والألثغ الذى لا يستطيع أن يتكلم بالراء ، وقيل هو الذى يجعل الراء غيناً أو لاماً ، أو يجعل الراء فى طرف لسانه ، أو يجعل الصاد فاء ، وقيل هو الذى لا يبين الكلام ، وقيل هو الذى قصر لسانه عن موضع الحرف ، ولحق موضع أقرب الحروف من الحرف الذى يعثر لسانه عنه ، والمصدر اللثَغ ... واللُّثْغة ثقل اللسان بالكلام (٤٢) .

ومما سبق نستطيع القول بأن اللثغة تعنى العيوب النطقية الآتية :

ــ انحراف أو خطأ فى نطق الصوت ليتحول إلى صوت آخر ، وقد ضربوا (٤٣) أمثلة على ذلك بالراء (٤٤) والسين والصاد .

ــ عدم إبانة الكلام .

ــ قصر اللسان عن موضع الصوت ليلحق بمخرج أقرب الأصوات إلى الصوت الذى يراد نطقه .

ــ ثقل اللسان بالكلام .

---

(٤٠) مادة : (ل ث غ) .

(٤١) نفس المادة .

(٤٢) نفس المادة .

(٤٣) أى فى مختار الصحاح ، وأساس البلاغة ولسان العرب .

(٤٤) إذ الراء من أصعب الأصوات نطقاً ، فكثيراً ما يحدث الخطأ فى نطق هذا الصوت ، ولا يتمكن الطفل من نطقه صحيحاً إلا بعد سنوات .

أما الرتة فقد ذكر صاحب اللسان (٤٥) : (الرتّة بالضم عجلة فى الكلام ، وقلة أناة ، وقيل أن يقلب اللام ياء ... أبوعمرو: الرتة رَدّة قبيحة فى اللسان من العيب ، وقيل هى العجمة فى الكلام والحُكْلَة (٤٦) فيه ... الأرت الذى فى لسانه عقدة وحبسة ، و يعجل فى كلامه فلا يطاوعه لسانه ، التهذيب : الغمغمة أن تسمع الصوت ولا يبين لك تقطيع الكلام ، وأن يكون الكلام مشبهاً لكلام العجم ، والرتة كالريح تمنع منه أول الكلام ، فإذا جاء منه اتصل به ، قال : والرتة غريزة ، وهى تكثر فى الأشراف (٤٧) ، والرتّى المرأة اللثغاء ، ابن الأعرابى : ورترت الرجل إذا تعتع فى التاء وغيرها) .

ومن ثم نرى معنى الرتة يدور حول :

- العجلة فى الكلام وقلة الأناة .
- العجْمة والحُكْلة .
- عقدة فى اللسان وحبْسة فلا يطاوع اللسان صاحبه .
- الغمغمة بحيث نسمع الأصوات متداخلة متآكلة ، فلا نتمكن من تمييزها أو التفرقة بينها .
- اللثغة ، كأن تنطق اللام ياء .

و بعد استعراض المعانى المعجمية لكل من اللثغة والرتة نستطيع القول بأن العقدة التى كانت فى لسان موسى ــ عليه الصلاة والسلام ــ كانت عبارة عن حبسه تمنعه من الكلام فلا يطاوعه لسانه ، ولذا قال : « رب إنى أخاف أن يكذبون ، و يضيق صدرى ، ولا ينطلق لسانى ، فأرسل إلى هارون » (٤٨) ، وتلك الحبسة تكون أول الكلام فقط ، فإذا جاء منه شىء اتصل به واستمر ــ كما أشار فى اللسان ــ وهذا

---

(٤٥) مادة : (رت ت) .

(٤٦) فى أساس البلاغة : (الحُكْلة العجمة) انظر مادة : ح ك ل .

(٤٧) ربما لأن الأشراف أكثر إحساساً بخطورة كلامهم وأهميته ، فلا يتركون ألسنتهم تساب على عواهنها .

(٤٨) سورة الشعراء ، الآيتان ١٢ ، ١٣ .

كله ناتج عن ثقل اللسان بالكلام ، و يترتب على ما سبق عدم القدرة على تبيين الكلام وتوضيحه ، ولذا قال فرعون ، كما سبقت الإشارة إليه : « أم أنا خير من هذا الذى مهين ولا يكاد يبين ؟ » (٤٩) .

وقد اختلف المفسرون هل زالت عقدة موسى — عليه الصلاة والسلام — بكاملها ، أم ذهب بعضها ، و بقي بعضها ؟ فقيل : زالت العقدة بكمالها لقوله تعالى : « قد أوتيت سؤلك يا موسى » ولكن الراجح أن موسى ما سأل ذهاب العقدة بالكلية ، بل بحيث يزول العى ، ويحصل للناس فهم ما يراد منه ، وهو قدر (٥٠) الحاجة ، ولهذا بقيت بقية (٥١) ، ففي قوله : « واحلل عقدة من لسانى » جاءت عقدة نكرة ، ولم يقل : (عقدة لسانى) مما يؤكد أن موسى طلب حل بعضها لكى يفهم عنه فهماً جيداً ، ولم يطلب الفصاحة الكاملة ، وقوله : « من لسانى » صفة للعقدة ، كأنه قال : عقدة من عقد لسانى (٥٢) .

و يبدو أن الله قد استجاب لموسى — عليه الصلاة والسلام — فجعل لسانه ينطلق ، ولا يضيق صدره حين يحاجج فرعون وقومه ، و يدافع عن دعوته ، و يبين للناس مهمته .

(جـ) الفصاحة : نسب إلى اللسان عدم الانطلاق والعقدة ، ولكنه هنا ينسب إليه العكس ، أى الفصاحة ، فإن موسى — عليه الصلاة والسلام — كان قد اعتذر إلى رب العزة عن المهمة الشاقة التى كلف بها مبرراً ذلك الاعتذار بجملة من التبريرات ، بيد أنه قال : « وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ، فأرسله معى ردءاً يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون » واستجاب الله لدعاء موسى : « قال : سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما ، بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » (٥٣) .

---

(٤٩) سورة الزخرف ، الآية ٥٢ .

(٥٠) تفسير ابن كثير ، ٣/١٤٦ .

(٥١) الكشاف ، ٢/٤٣٢ .

(٥٢) السابق .

(٥٣) سورة القصص ، الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .

لقد استجاب الله لكل ما دعا به نبي الله موسى ــ عليه الصلاة والسلام ــ فحلّ عقدة من لسانه ، أى جعله قادراً على المنافحة والمدافعة عن دعوته ، ثم شد ساعده وجعل أخاه هارون ردءاً له ومعيناً ، يقوى دعواه ، ويخلفه إن قتله فرعون أو قومه (٥٤) .

ومن الملاحظ أن موسى ــ عليه الصلاة والسلام ــ يقول : (أفصح) فإذا ما أخذ اسم التفضيل هنا على معناه النحوى ، فلا مفر من الاعتراف بأن العملية كانت مجرد مفاضلة فقط ، فموسى كهارون فى صفة الفصاحة ، وإن زاد الأخير فى المقدار ، مما يشير إلى أن موسى أيضاً كان على قدر من الفصاحة ، وأن تلك العقدة فى لسانه كانت مجرد حُبْسة تمنعه بداية الكلام فقط ، فإذا بدأ انطلق فأبان وأفصح ، دون عى أو عجز .

وقد سبق أن تلك الحبسة تكثر فى الأشراف ، ولذا قيل إن الحسين بن على ــ رضى الله عنه ــ كان فى لسانه رتة ، أى حبسة ، قال جده ، صلى الله عليه وسلم : (ورثها من عمه موسى) (٥٥) وبرغم هذا فلا يمارى أحد فى فصاحة الحسين وبعده عن العى والعجز ، وعلى أية حال فلنا عود إلى هذا الموضوع فيما بعد .

٣ ــ الصدق أو الكذب واللى :

وهو مما نسب إلى اللسان فى الكتاب الكريم ، كما يلى :

(أ) الصدق : وقد جاء ذلك فى الموضعين الآتيين :

- ... « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين »(٥٦) .

- ... « ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا »(٥٧) .

فى الموضع الأول دعاء من نبى الله إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ بأن يهبه لسان صدق فى الخلف والأعقاب ، ومن يأتى بعده ، وقد فسر هذا بالذكر الجميل

---

(٥٤) الظلال ، ٦/٣٤٧ .

(٥٥) الكشاف ، ٢/٤٣٢ ، وانظر أيضاً الكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) الحديث رقم ٣٦٦ .

(٥٦) سورة الشعراء ، الآية ٨٤ .

(٥٧) سورة مريم ، الآية ٥٠ .

والثناء الحسن ليذكر به، و يُقْتَدى، قال فى الكشاف (٥٨) : (عبر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يطلق باليد، وهى العطية، قال: إن أتتنى لسان لا أسر بها، يريد الرسالة).

وقد استجاب الله تعالى دعاء نبيه إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ ففى سورة مريم (٥٩) : «فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق و يعقوب، وكلا جعلنا نبياً، ووهبنا لهم من رحمتنا، وجعلنا لهم لسان صدق عليا» فكان إبراهيم قدوة حتى ادعاه أهل الأديان كلهم، وقال عز وجل: «ملة أبيكم إبراهيم (٦٠) ــ ملة إبراهيم (٦١) ــ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم» (٦٢)، وأعطى ذلك فى ذريته، فأعلى ذكرهم، وأثنى عليهم، كما أعلى ذكره وأثنى عليه (٦٣).

صفوة القول أن اللسان نسب إليه الصدق فى موضعين من الكتاب الكريم، وكان ذلك فى دعاء نبى الله إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ واستجابة رب العزة لدعاء نبيه، وفى كلا الموضعين رأينا أن المعنى هو الذكر الجميل والثناء الحسن.

(ب) الكذب: ومما نسب إلى اللسان أيضاً الكذب، على عكس ما سبق، وقد وجدنا هذا فى موضعى سورة النحل، وكلاهما يتحدث عن المشركين:
ــ .. «ويجعلون لله ما (٦٤) يكرهون، وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى» (٦٥).

---

(٥٨) ٢/٤١٤.

(٥٩) الآية ٤٩.

(٦٠) سورة الحج، الآية ٧٨.

(٦١) سورة البقرة، الآية ١٣٥.

(٦٢) سورة النحل، الآية ١٢٣.

(٦٣) الكشاف، ٢/٤١٤.

(٦٤) أى البنات، ومن الشركاء الذين هم عبيده، برغم أنهم يأنفون أن يكون لأحدهم شريك فى ماله أو قوله، انظر تفسير ابن كثير، ٥/٥٧٣.

(٦٥) سورة النحل، ٦٢.

ـ .. « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال ، وهذا حرام (٦٦) لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » (٦٧) .

والتعبير واحد ـ كما نرى ـ فى الموضعين كليهما ، وهو وصف الألسنة للكذب ، وإن كان الأول للغائبين ، والثانى للمخاطبين ، وهم المشركون فى الاثنين ، كما ذكرنا .

وهذا التعبير من فصيح الكلام وبليغه ، فقد جعل ألسنتهم ذاتها كأنها الكذب بعينه ، أو كأنها صورة له تحكيه وتصفه ، كما تقول : قوامه يحكى الرشاقة ، وعينه تصف الحور ، لأن ذلك القوام بذاته تعبير عن الرشاقة ، مفصح عنها ، ولأن هذه العين بذاتها تعبير عن الحور ، مفصح عنه ، كذلك قال : « وتصف ألسنتهم الكذب » فهى بذاتها تعبير عن الكذب ، مفصح عنه ، مصور له ، لطول ما قالت الكذب ، وعبرت عنه ، حتى صارت رمزاً عليه ، ودلالة له (٦٨) .

(جـ) اللـــى : رأينا لسان الصدق ارتبط بأنبياء الله ، إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، أما الألسن التى تصف الكذب فهى للمشركين ، وهنا نجد صفة ثالثة للألسن ، وهى اللى ، والذى ارتبط فى موضعيه باليهود :

ـ قال تعالى : « وإن منهم (٦٩) لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، ويقولون : هو من عند الله ، وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب ، وهم يعلمون » (٧٠) .

ـ وقال تعالى : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا ، واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم ، وطعنا فى الدين ، ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا لكان خيراً وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلاً » (٧١) .

---

(٦٦) المقصود قول المشركين : « ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا » سورة الأنعام ، الآية ١٣٩ .

(٦٧) سورة النحل ، ١١٦ .

(٦٨) الظلال ، ٥ / ٢٥١ ، وانظر أيضاً الكشاف ، ٢ / ٣٤٧ .

(٦٩) أى اليهود .

(٧٠) سورة آل عمران ، الآية ٧٨ .

(٧١) سورة النساء ، الآية ٤٦ .

ففى الموضع الأول نرى فريقاً من اليهود يحرفون الكتاب ـ أى التوراة ـ عن ابن عباس : (هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف ، غيروا التوراة ، وكتبوا كتباً بدلوا فيها صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذى عندهم (٧٢) .

وفى الموضع الثانى نرى نفس المعنى ، أى التحريف ، فهم يظهرون التوقير والاحترام للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ و يضمرون السب والشتم (٧٣) :

ـ ففى ظاهر اللفظ أنهم يقولون : (اسمع) غير مأمور بالسمع ، وهى صيغة تأدب .

ـ وهم يقولون : (راعنا) أى انظر إلينا نظرة رعاية لحالنا ، أو نظرة اهتمام لوضعنا ، بما أنهم أهل كتاب ، فلا ينبغى أن يدعوا إلى الإسلام كالمشركين (٧٤) .

هذا هو الظاهر من كلامهم ، أما القصد والنية فغير ما تقدم ، فقد أرادوا من : (اسمع) لا سمعت ، ولا كنت سامعاً ، و: (راعنا) يميلونها إلى وصف (٧٥) الرعونة ، وهذا التواء ومداهنة ، وتحريف للكلم عن مواضعه (٧٦) .

وقال فى الكشاف : (يحتمل راعنا نكلمك ، أى ارقبنا وانتظرنا ، ويحتمل شبه كلمة عبرانية ، كانوا يتسابون بها ، وهى (٧٧) راعينا ، فكان اليهود سخرية بالدين وهزؤاً برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلمونه بكلام ينوون به الشتيمة ، والإهانة ، و يظهرون به التوقير والإكرام (ليا بألسنتهم) فتلا بها وتحريفاً ، أى يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل ... أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرون من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقاً (٧٨) .

---

(٧٢) الكشاف ، ١/١٩٧ .

(٧٣) السابق ، ١/٢٧١ .

(٧٤) الظلال ، ٢/٢٩٤ .

(٧٥) ومن أجل هذا نزل قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ، وقولوا انظرنا واسمعوا ، وللكافرين عذاب أليم» .

(٧٦) الظلال ، ٢/٣٩٤ .

(٧٧) الكشاف ، ١/٢٧١ .

(٧٨) السابق .

نخلص مما سبق إلى أن اللى معناه الفتل ، ثم انصرف هنا إلى التحريف والتغيير خداعاً ونفاقاً .

٤ ـ البسط والحدة :

نسبت هاتان الصفتان إلى اللسان فى موضعين ، الأول عند الحديث عن المشركين والثانى خاص بالمنافقين ، كما يلى :

أ ـ البسط : وقد جاء فى قوله تعالى : « إن يثقفوكم يكونوا (٧٩) لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون » (٨٠) . أى لو ظفروا بكم ـ أيها المسلمون ـ لنالوكم بالقتال والشتم ، فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها منكم حتى يتصرفوا تصرف العدو الأصيل ، فيوقعوا بكم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدى والألسنة ، وبكل وسيلة ممكنة (٨١) .

ب ـ الحدة : قال تعالى : « قد يعلم الله المعوقين منكم ، والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلاً ، أشحة (٨٢) عليكم ، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا » (٨٣) .

وصفت الألسنة بأنها : (حداد) ومفردها [حديد] الذى ورد فى قوله تعالى : « لقد كنت فى غفلة من هذا فبصرك اليوم حديد » (٨٤) أى فرأيك اليوم نافذ (٨٥) .

---

(٧٩) المقصود مشركو مكة .

(٨٠) ٢ / الممتحنة .

(٨١) الظلال ، ٨ / ٦٠ .

(٨٢) وصف هؤلاء القوم بالنفاق قبل ذلك ، وهو ما أفهمه من الآيات ، وإن لم يصرح به .

(٨٣) سورة الأحزاب ، الآيتان ١٨ ، ١٩ .

(٨٤) سورة ق ، الآية ٢٢ .

(٨٥) لسان العرب ، مادة : (ح د د) .

و: (حَدَّ) السيف : د بالكسر: (حِدّة) أى صار: (حاداً). و: (حديداً) وسيوف: (حِداد) وألسنة حِداد بالكسرة فيهما (٨٦).

ومعنى الآية أن هؤلاء المعوقين تنخلع قلوبهم من الهلع والفزع عند البأس والحرب والشدة فإذا ما انتهى ذلك كله وجاء الأمن وقسمت الغنائم خرجوا من الجحور، وارتفعت الأصوات، وانتفخت الأوداج بالعظمة، ونفشوا بعد الانزواء، وادعوا فى غير حياء البلاء فى القتال والفضل فى الأعمال والشجاعة والاستبسال (٨٧).

نوع من الناس فصيح شجاع بارز عند الأمن والرخاء، جبان صامت عند الشدة والخوف، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير، لاينالهم منه إلا سلاطة اللسان (٨٨).

إذن فحدة اللسان تعنى السلاطة والجرأة، ونلاحظ أن الآية تستعمل الفعل: (سلقوكم) أى ضربوكم، كى يتضح تأثير هذه الألسنة التى كأنها السيوف الحداد.

ومن ثم نخلص إلى أن بسط الألسنة ــ أى إطالتها ــ تعنى الأذى بالمقال، وهو الشتم، وقد اقترن ببسط الأيدى إشارة إلى مايمكن أن يحدثه المقال فى النفس، كما يحدث الفعال فى الجسم، بل ربما يكون الأول أقوى وأنكى، وقريب من ذلك حدة اللسان، أى سلاطته وجرأته، إذ هما نتيجتان لازمتان لبسطه، فلا يكون اللسان حاداً دون أن يطال و يبسط.

خامساً ــ اللسان بمعنى لغة القوم:

جاء اللسان بهذه المعنى فى الكتاب الكريم فى ثمانية مواضع، كما يلى:

(أ) قال تعالى: «ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين» (٨٩) قال فى الكشاف: (الألسنة اللغات، أو

(٨٦) مختار الصحاح وأساس البلاغة ــ مادة: (ح د د).

(٨٧) الظلال، ٦/٥٥٧.

(٨٨) الظلال، ٦/٥٥٧.

(٨٩) ٢٢ / الروم.

أجناس النطق وأشكاله ، خالف الله بين هذه الأشياء ، حتى لا تكاد تسمع منطقتين متفقتين فى همس واحد ولا جهارة واحدة ، ولا شدة ، ولا رخاوة ، ولا فصاحة ، ولا لكنة ، ولا نظم ، ولا أسلوب ، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله ... وكذلك الصور وتخطيطها والألوان وتنويعها ، ولاختلاف ذلك وقع التعارف ، فلو اتفقت وتشاكلت وقع الالتباس (٩٠) .

وأرى أن التفسير الأول للألسنة الذى ذكره الزمخشرى ، أى اللغات هو الأرجح ، وليس ما سماه : (أجناس النطق وأشكاله) إذ يمكن أن تدخل هنا اللهجات المحلية والاجتماعية (٩١) ، واللغات الخاصة ، مثل لغة المثقفين ، لغة العمال ، لغة النساء ... إلخ ، باعتبار ذلك كله جزءاً من لغة القوم كالعربية أو الفرنسية أو الفارسية مثلاً .

ولو كان المراد بالألسنة أجناس النطق المشار إليها لما ارتبط ــ فى الآية ــ اختلاف الألسنة باختلاف الألوان ، إذ لا ارتباط بين ألوان الناس و بين لهجاتهم المحلية أو لغاتهم الاجتماعية ، كما هو ظاهر باد للعيان .

إن اختلاف الألسنة والألوان بين بنى الإنسان لابد أنه ذو علاقة بخلق السماوات والأرض ، فاختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات ، ذلك الاختلاف الناشئ عن طبيعة وضع الأرض الفلكى ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان مع اتحاد الأصل والنشأة فى بنى الإنسان (٩٢) ، التى تعود إلى آدم ، عليه الصلاة والسلام .

(ب) قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم »(٩٣) .

---

(٩٠) الكشاف ، ٣/٢٠١ .

(٩١) يمكن تحديد اللهجة الجغرافية بالسؤال التالى : من أين أنت ؟ فى حين تحدد اللهجة الاجتماعى بالسؤال التالى : إلى أية طبقة اجتماعية تنتمى ؟ انظر : الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام للدكتور ميشيل زكريا ، ص ١٢٢ ، وانظر أيضاً المدخل إلى علم اللغة ، ومناهج البحث اللغوى للدكتور رمضان عبد التواب ، ص ١٦٥ .

(٩٢) الظلال ، ٦/٤٤٩ .

(٩٣) ٤/ إبراهيم .

هكذا اقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يرسل إلى كل قوم بلسانهم ، أى لغتهم ، ففى الحديث الشريف : (لم يبعث الله ـ عز وجل ـ نبياً إلا بلغة قومه (٩٤) وذلك ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه ، فلا يكون لهم حجة على الله ، ولا يتعللوا بأنهم لم يفهموا ما خوطبوا به ، كما قال تعالى (٩٥) : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى !! » (٩٦) .

(جـ ، د) قال تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون (٩٧) إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » (٩٨) .

عن ابن عباس : (كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم عبداً بمكة يسمى بلعام ، وكان أعجمى اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدخل عليه ، ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله هذه الآية) فكيف يمكن لمن كان لسانه أعجمياً أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربى المبين (٩٩) .

(هـ) قال تعالى : « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » (١٠٠) .

قال فى الكشاف : (نزل القرآن باللسان العربى ، لأنه لو نزله باللسان الأعجمى لتجافوا عنه أصلاً ، ولقالوا : ماذا نصنع بما لا نفهمه ، فيتعذر الإنذار به ، وفى هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التى هى لسانك ، ولسان قومك تنزيل له على قلبك ، لأنك تفهمه ، و يفهمه قومك ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك ، دون قلبك لأنك

---

(٩٤) رواه أحمد .

(٩٥) الكشاف ٢/ ٢٩٣ .

(٩٦) ٤٤/ فصلت .

(٩٧) ألحد : مال إليه ، انظر أساس البلاغة ، مادة : (ل ح د) .

(٩٨) سورة النحل ، الآية ١٠٣ .

(٩٩) الظلال ، ٥/ ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(١٠٠) سورة الشعراء ، الآيات من ١٩٢ ـ ١٩٥ .

تسمع أجراس حروف ، لا تفهم معانيها ، ولا تعيها ، فقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات ، فإذا كُلِّم بلغته التى لقنها أولاً ، ونشأ عليها ، وتطبع بها ، لم يكن قلْبُه إلا إلى معانى الكلام ، يتلقاها بقلبه ، ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت ، وإن كلم بغير تلك اللغة ـــ وإن كان ماهراً بمعرفتها ـــ كان نظره أولاً فى ألفاظها ، ثم فى معانيها ، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه ، لنزوله بلسان عربى مبين (١٠١) .

ويضيف الزمخشرى بعداً جديداً هنا يفهمه من قوله تعالى : «نزل على قلبك» أى القرآن الكريم ، الذى نزل بلسان محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ العربى المبين ، الذى درج عليه ، فلا يحتاج أن يفكر فى أصوات هذا اللسان وصولاً إلى المعانى ، وهذا هو السبب فى أن الإنسان مهما اتقن من لغات أجنبية وأجاد فإن لغة الأم ـــ برغم ذلك كله ـــ تبقى متميزة على غيرها ، إتقاناً وإيثاراً من جانب صاحبها .

(و) قال تعالى : «ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً (١٠٢) عربياً ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين» (١٠٣) . والمعنى نزلنا القرآن باللسان العربي الفصيح البين الواضح .

(ز) قال تعالى : «فإنما يسرناه (١٠٤) بلسانك لتبشر به المتقين ، وتنذر به قوماً لدا» (١٠٥) .

(ح) قال تعالى : «فإنما يسرناه بلسانك ، لعلهم يتذكرون» (١٠٦) . إنما يسرنا هذا القرآن الذى أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذى هو أفصح اللغات وأجلاها (١٠٧) .

---

(١٠١) الكشاف ، ٣/ ١٢٧ .

(١٠٢) لساناً : حال من الضمير فى مصدق ، الكشاف ، ٣/ ٤٤٥ .

(١٠٣) سورة الأحقاف ، الآية ١٢ .

(١٠٤) القرآن الكريم .

(١٠٥) سورة مريم ، الآية ٩٧ .

(١٠٦) سورة الدخان ، الآية ٥٨ .

(١٠٧) تفسير ابن كثير ، ٤/ ١٤٧ .

وبعد استعراض المواضع الثمانية نشير إلى الملاحظات الآتية :

١- لقد نزل القرآن الكريم بلسان العرب فى حين أنه كتاب البشرية جمعاء ، وليس العرب وحدهم ، وأرى أن من أسرار اختيار هذا اللسان دون غيره ميزة من الصعب أن نجدها فى غير العربية التى تتميز بوضوح مقاطعها ، بحيث يتمكن غير العربى من التقاط تلك المقاطع ومعرفة أصواتها (١٠٨) ، على عكس غيرها من لغات الشعوب والقبائل ، وهذا ما يدركه تماما العربى الذى يصغى لمتكلم يتحدث بلغة أجنبية لا يعرفها ، إن تتبع المقاطع الأجنبية والأصوات فى هذه الحالة أمر بالغ الصعوبة ، اللهم إلا إذا تمهل الناطق فأخذ أضعاف الزمن المطلوب ، أو كان العربى يعرف هذه اللغة الأجنبية .

ومن أجل تلك الميزة كان القرآن بلسان محمد — صلى الله عليه وسلم — كما وصف اللسان فى موضعين من المواضع الثمانية بأنه مبين : (وهذا لسان عربى مبين — بلسان عربى مبين) .

وحالة الوضوح فى المقاطع والأصوات المشار إليها لا تكون إلا فى قراءة القرآن بطريقة صحيحة بإيفاء كل صوت حقه من الزمن والترقيق والتفخيم وعدم تأثره بغيره إلا فى إطار القواعد الأصواتية التى نص عليها علماء العربية ، وبخاصة علماء التجويد والقراءات .

لقد نمت العربية وترعرعت فى بيئة صحراوية تعتمد على المشافهة والحفظ والسماع ، ومن ثم اهتم أصحابها بجودة النطق وتآلف الألفاظ والبعد عن تنافرها ، وعدم انسجامها مع بعضها حتى غدت عند نزول الكتاب لغة راقية جديرة بهذا الكتاب الخاتم ، وهذه الرسالة الخاتمة .

٢- « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » معناه (١٠٩) أن من تعهد بإيقاظ الناس وهدايتهم عليه أن يتحدث إليهم بلغتهم ، ليس بالمعنى الذى قاله كل المفسرين

---

(١٠٨) أما عن طريقة الكتابة العربية فهى لا تقارن فى دقتها وجمالها بأية أبجدية أخرى ، برغم المحاولات اليائسة المغرضة لاستبدالها بالحروف اللاتينية أو غيرها ، وآخر تلك المحاولات الفاشلة ما ينادى به بعض بنى العربية — بكل أسف — من كتابة الحروف العربية مفردة كى تلتصق بها رموز الحركات القصار ، انظر تفصيل تلك المحاولة فى بحوث مهرجان طه حسين الثانى عشر (١٩٨٦) .

(١٠٩) نقلنا هذه الملاحظة بكاملها — مع تصرف يسير — من كتاب العودة إلى الذات للدكتور على شريعتى ، ص ٢٩٣ — ٢٩٥ ، الزهراء للإعلام العربى ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .

أن موسى ـ على سبيل المثال ـ كان يتحدث بالعبرية ، ومحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يتحدث بالعربية ، ليس هذا فى حاجة إلى قول ، وهل يصح أن يبعث رسول إلى اليهود و يتحدث باللغة الصينية ؟

والمقصود أن الرسل لم يكونوا مثل بعض مفكرينا ، يجلسون معاً ، و يتبادلون معاً الكلمات الفلسفية والعلمية جداً ، ولكن ليست لديهم الجرأة على أن ينزلوا من أبراجهم العاجية ، و يسيروا خطوة واحدة فى السوق أو بين عمال القمائن والمحاجر ، أو فى المساجد أو القرى والدساكر ليروا شكل الشعب أو الجماهير الكادحة التى يحبونها غيابياً ، ويحددون لها ما تقوم به بالوكالة ، وماذا تفعل ، وكيف تفكر .

ليس الرسول هو فلان المفكر التقدمى جداً الذى عندما يدخل مقهى أو محلاً لتجمع الفعلة والفلاحين يسكت من حوله خوفاً وحذراً ، و يظن الناس أن : (السيد الأجنبى) قد وصل ، و ينبغى أن يكونوا على حذر ، ويحس هو أيضاً أنه دخل مجتمعاً غريباً ، لا يوجد بينها أى نوع من التشابه والتفاهم ، هذا هو معنى لسان القوم ، هذا اللسان ليس الفارسية أو العربية أو العبرية ، هو ثقافة قوم ما وروحهم وعواطفهم وحاجاتهم وآلامهم ومتاعبهم وأمانيهم ، والجو الفكرى والروحى والاجتماعى عندهم .

كانت مارى انطوانيت تتحدث بنفس اللغة التى يتحدث بها الثوريون فى القرن الثامن عشر ، لكنها عندما أخبروها أن الناس قد ثاروا لأنهم لم يجدوا الخبز قالت بنفس الفرنسية التى يتحدث بها الناس : (إذا لم يكن لديهم خبز بسبب القحط أو احتكار القمح فليأكلوا البسكويت والشيكولاته !) .

وكان أحد النواب يطوف بدائرته الانتخابية لدراسة مشكلات ناخبيه ومطالبهم فشكا له الناس ارتفاع أسعار السلع الضرورية وأخذوا يبثونه همومهم أن أسعار المواد التموينية قد ارتفعت بحيث جعلت الحياة قاسية جداً ، ولكى يبدى النائب الموقر تأييده لشكوى الناس ، ولكى يواسيهم و يدلل على أنه أيضاً يشاركهم هذه الآلام قال : (فى الواقع أمر عجيب ، أمر المواد التموينية يدير الرأس ، منذ عامين أو ثلاثة فقط عندما كان يقدم لك عشاء فخم فى أرقى المطاعم والفنادق كان كل فرد يدفع من عشرة إلى عشرين جنيهاً ، وعلى الأكثر

إذا كان هناك إجحاف خمسة وعشرين ، لكن الآن عندما نتناول طعاماً عادياً مثل الأرز بالدجاج أو الجمبرى ترى أن الأمر يكلفك من ثلاثين إلى أربعين جنيهاً ، ومن هنا فإن الجميع غير راضين ، والواحد منا دخله ألف جنيه فى الشهر فقط ، دون أن تفكر الحكومة فى زيادة مخصصاتنا ، إن نفقات الحياة فى عاصمتنا قد ارتفعت عن باريس ونيويورك ، ناهيك عما يختص بنا ـ نحن النواب ـ علينا صادر ووارد ، وعندنا مظهر ونفقات طائلة وسهرات وولائم ، والخلاصة أن عضو المجلس ينبغى أن يكون داخل المجتمع ، إنه رجل سياسى واجتماعى ، إنه يتعامل مع الجميع ، لا يستطيع أن يغلق عليه منزله ، و يقبع فيه ، ويختبئ و يغلق عليه بابه .. إنه نائب ، ليس من زهاد الهند ، من الممكن أن ينفق مرتب شهر أو شهرين على وليمة واحدة ، إلى جوار وضع الحياة ، إنكم ترون إلى أى حد بلغ ارتفاع أسعار المواد التموينية) .

إنكم ترون أنهما يتحدثان بلغة واحدة ، لكن على موجتين مختلفتين ، كلاهما يستخدم نوعاً واحداً من الألفاظ ، بيد أن معنى أية كلمة وروحها وإحساسها يختلف بين ذهنى شخصين من طبقتين اجتماعيتين مختلفتين ، وجوين ثقافيين مختلفين ، هذا اللسان المقصود هو لسان الحياة ، لا اللسان الذى يستخدم فى الأدب .

كم من هندى وتركى متفاهمين معاً ، وكم من تركيين كأنهما معاً غريبان ، منذ بضع سنوات كان أسلوب الشيخ على المنبر قد ازدهر بحيث كان كل خطيب مبتدئ يحفظ متون مواعظه تقليداً له ، وليستخدم بلاغته وخطبه الخاصة فى مجالسه ، كان الشيخ خطيباً وواعظاً فى مجالس الأعيان والأشراف ، ورجال الدولة ، وفى ذلك الوقت كان أحد الخطباء المبتدئين عندما يذهب إلى قريته كان يخاطب الناس الذين تعد أعظم وسائل النقل عندهم الحمار الصغير النشيط ، وليس منه فى القرية إلا اثنان أو ثلاثة ، وأمام أناس لم يترك سوء التغذية والجوع والفقر إلا بقايا وميض ميت فى عيونهم ، أمام هؤلاء المساكين كان ينبرى خطيباً قائلاً : (أيها الرجال ، أيها الأعيان ، أيها الناس الذين تمرون راكبين سياراتكم المرسيدس والشيفورليه من آخر طراز بكبرياء ، وتنشرون الغبار والطين والوحل على رءوس المشاة ووجوههم ، أيها الناس الذين تنفضون

رماد سجائركم على القطع التى لم يؤكل إلا نصفها من أوزكم المشوى ، وديكتكم الرومية) [١١٠] فكلا الخطيبين يتحدثان بنفس اللسان ، ولكن الفروق شواسع بينهما .

٣- وأهم هذه الملاحظات جميعاً أن اللسان قصد به الإنسان فقط دون غيره من طير أو حيوان أو نبات ، فهل نقول إن هذه المخلوقات ليس لها من لغة تتفاهم بها ، إن العلم لا يقبل بهذه الفكرة ، بل لقد درس كثير من العلماء طرق التفاهم التى تستخدمها مختلف مخلوقات الكون ، وأقروا أن لكل لغته المستقلة ، وفى الكتاب الكريم : « وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، وما فرطنا فى الكتاب [١١١] عن شىء ، ثم إلى ربهم [١١٢] يحشرون [١١٣] » ومعلوم أن الأمة لا تكون بغير لغة تجمعها ، ثم تميزها عن غيرها من الأمم .

ولقد أشار الكتاب الكريم إلى لغة الطير ، وإن لم يسمها بهذا الاسم ، كما لم يستخدم كلمة لسان ، بل استخدم كلمة أخرى ، هى المنطق ، قال تعالى : « وورث سليمان داود ، وقال : يا أيها الناس ، علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء ، إن هذا لهو الفضل المبين » [١١٤] ، إذن فلغة الإنسان أطلق عليها القرآن اللسان ، أما غيره فقد استخدم المصطلح : (منطق) .

وإذا كان القرآن الكريم استخدم المصطلح السابق مضافاً إلى الطير فقط ، فإن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، فقد سبق قوله تعالى : (وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر...) فقد ذهب المفسرون إلى أن المقصود الأمم كلها من الدواب ، والطير [١١٥] ، وليس الطير فقط ، وعليه فإن لغات البشر كالعربية والفارسية والفلانية والسواحيلية يطلق عليها ألسنة ومفردها لسان ، أما الطير والحيوان ـ والنبات أيضاً ـ فليس لها لغة أو لسان ، إنما هو منطق .

---

(١١٠) يحاول تقليد خطب الأعيان ورجال الدولة .

(١١١) اللوح المحفوظ .

(١١٢) أى الأمم من الطير والحيوان .

(١١٣) سورة الأنعام ، الآية ٣٨ .

(١١٤) سورة النمل ، الآية ١٦ .

(١١٥) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ، ٢ / ١٣١ .

فهل لهذا الاختلاف فى التسمية دلالة ما ؟ إن هذا مما لا شك فيه ، إنه يعنى اختلاف لسان الإنسان عن منطق غيره من المخلوقات المسخرة لخدمة هذا الإنسان ، هذا الاختلاف النابع من اختلاف النشأة الإنسانية التى تختلف عن نشأة الطير أو الحيوان ، أو النبات ، فضلاً عن أن الوظيفة مختلفة هى الأخرى ، فالإنسان خلق على هذه الأرض ، خليفة عن رب العزة : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) (١١٦) وما كان إلا للعبادة : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (١١٧) ، وفى ضوء هاتين الوظيفتين كانت حاجة البشر إلى هذا اللسان ــ اللغة الإنسانية ــ التى لا يستطيع الإنسان أن يعيش لحظة فى يقظة أو منام بدونها .

أما مخلوقات الله الأخرى فهى بحاجة فقط إلى ما تؤدى به وظيفتها ، أى التواصل فيما بينها ، وأن تفهم عن الإنسان ما يريده منها فقط ، دون ما عداه .

وإن دراسة منطق الحيوان (١١٨) لهو أمر مفيد لمزيد من الاستفادة من هذا الحيوان وتسخيره لخدمة الإنسان ، دون أن يخطر ببالنا لحيظة واحدة أن الفوارق والفواصل بين الإنسان والحيوان قد تلاشت ، وأوشكت على الانتهاء ، ثم ننساق وراء تعريفات مضللة ، مثل : (الإنسان حيوان ناطق ــ حيوان مفكر ــ حيوان فنان) (١١٩) إلى آخر هذه التعريفات التى قد تغرى البعض ، وتوحى إليه بأن الفارق بين الإنسان والحيوان لا يتعدى عملية النطق ليس إلا ، ومن ثم حاولوا تعليم الإنجليزية لقرود الشمبانزى ، ولكن النتائج كانت مخيبة للآمال برغم البحوث والدراسات المضنية ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة الدكتور محمد عماد الدين خليل فى كتابه « الأطفال مرآة المجتمع ــ النمو النفسى الاجتماعى للطفل فى سنواته التكوينية » (١٢٠) ، والدكتور نايف خرما فى كتابه أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (١٢١) ، وكلاهما من إصدارات عالم المعرفة بالكويت .

---

(١١٦) سورة البقرة ، الآية ٣٠ .

(١١٧) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

(١١٨) نقصد الحيوان وغيره من طير أو نبات .

(١١٩) الصحيح أن يقال : (إنسان ناطق ــ إنسان مفكر ... إلخ) .

(١٢٠) ص ٩١ ــ ١٠٣ .

(١٢١) ص ١٨١ ــ ١٨٩ .

وفى الكتاب الكريم وردت مادة نطق ومشتقاتها فى المواضع التالية :

١ - هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق [١٢٢] .

٢ - ولدينا كتاب ينطق بالحق ، وهم لا يظلمون [١٢٣] .

٣ - ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى [١٢٤] .

٤ - فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون [١٢٥] .

٥ - فورب السماء والأرض ، إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون [١٢٦] .

٦ - قال : بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون [١٢٧] .

٧ - ثم نكسوا على رءوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون [١٢٨] .

٨ - ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون [١٢٩] .

٩ - هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون [١٣٠] .

١٠ - قالوا أنطقنا الله .

١١ - الذى أنطق كل شىء [١٣١] .

١٢ - وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير .

---

(١٢٢) سورة الجاثية ، الآية ٢٩ ، ومعنى : (ينطق عليكم) يشهد عليكم بما عملتم ، الكشاف ٣ / ٤٤٠ .

(١٢٣) سورة المؤمنون ، الآية ٦٣ ، والكتاب هو كتاب الأعمال .

(١٢٤) سورة النجم ، الآيتان ٢ ، ٣ .

(١٢٥) سورة الصافات ، الآيتان ٩١ ، ٩٢ .

(١٢٦) سورة الذاريات ، الآية ٢٣ ، والضمير فى : (إنه) يعود على الرزق فى الآية السابقة .

(١٢٧) سورة الأنبياء ، الآية ٦٣ .

(١٢٨) سورة الأنبياء ، الآية ٦٥ .

(١٢٩) سورة النمل ، الآية ٨٥ .

(١٣٠) سورة المرسلات ، الآية ٣٥ .

(١٣١) سورة فصلت ، الآية ٢١ .

ونلاحظ فى هذه المواضع ما يلى :

١- إن المصدر لم يرد إلا فى الموضع الأخير، وبرغم أن مصدر الفعل نطق هو نطق ومنطق فإن الصيغة الأخيرة هى التى وردت ، كما رأينا

٢- استخدم الفعل نطق لازما ، وتعدى بالهمزة فى الموضعين العاشر والحادى : (أنطقنا ـ أنطق) وتظائر هذا جلس وأجلس ، وسكت وأسكت .

٣- إن الفعل اللازم ، كما جاء فى : (ينطق ـ تنطقون ـ ينطقون) لم يسند قط لغير الإنسان فى المواضع التسعة التى ورد فيها ، ولذلك رأينا آلهة إبراهيم باعتراف عابديها : « ما هؤلاء ينطقون » ، وكأنه ليس من طبيعة مثل هذه الجمادات أن تنطق ، أما نسبة النطق إلى الكتاب فى الموضعين الأول والثانى ، فهى مجازية ، فإن هذا الكتاب لإحاطته الشاملة بكل ما فعل صاحبه ، كأنه سجل يحكى كل ما حدث ، لشدة دقته ، و يقول تعالى : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، و يقولون : يا و يلتنا ، ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » (١٣٢) .

وظيفة المنطق :

كما يستخدم الإنسان اللسان فى عملية التواصل بينه و بين غيره من بنى البشر ، فإن الكائنات تستخدم المنطق لذلك الغرض ، ولغرض آخر هو التسبيح ، أى تسبيح الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو ما سنتعرض له بالتفصيل .

وفيما يختص بعملية التواصل نقول : إن القرآن الكريم اعتبر غير الإنسان على هذه الأرض إنما هى أمم أمثالنا ، وأخص خصائص الأمم لسان واحد يجمعها ، وقياساً عليه فإن الأمة من الطير أو الحيوان أو غيرهما لكل منها منطق خاص تتواصل به ، وتتفاهم به .

يقول رب العزة : « وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » (١٣٣) بل إن القرآن الكريم يعتبر الجن أيضاً أمماً كالبشر تماماً ، فى سورة

---

(١٣٢) سورة الكهف ، الآية ٤٩ .

(١٣٣) سورة الأنعام ، الآية ٣٨ .

الأعراف (١٣٤) : « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار، كلما دخلت أمة لعنت أختها.. » .

ويمكن أن نعطى نموذجين لهذا التواصل :

— فى قوله تعالى : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ، حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة : يا أيها النمل ، ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون .. » (١٣٥) وطبيعى أن النملة كانت تحاور بنات قومها بمنطقهن .

— جاء فى قصص (١٣٦) الأنبياء للحافظ بن كثير أن سليمان بن داود — عليه الصلاة والسلام — مر بعصفور يدور حول عصفورة ، فقال لأصحابه : (أتدرون ما يقول ؟) قالوا : وما يقول يا نبى الله ؟ قال : (يخطبها إلى نفسه ، و يقول : زوجينى أسكنك أى غرف دمشق شئت !) ثم يردف معقباً : (لأن غرف دمشق مبنية بالصخر، لا يقدر أن يسكنها أحد ، ولكن كل خاطب كذاب) .

ونعود إلى الوظيفة الثانية للمنطق بادئين بإثبات الآيات التى وردت فيها مادة التسبيح ، وهى :

— سبح لله ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم (١٣٧) .

— سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وهو العزيز الحكيم (١٣٨) .

— إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا ، وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون (١٣٩) .

---

(١٣٤) الآية ٣٨ ، وفى الحديث الشريف : (خلق الله — عز وجل — ألف أمة ، ستمائة فى البحر، وأربعمائة فى البر...) تفسير ابن كثير، ٢ / ١٣١ .

(١٣٥) سورة النمل ، الآية ١٨ .

(١٣٦) ص ٤٩٨ .

(١٣٧) سورة الحديد ، الآية ١ .

(١٣٨) سورة الحشر والصف ، الآية ١ .

(١٣٩) سورة السجدة ، الآية ١٥ .

- تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن [١٤٠].
- قال أوسطهم: ألم أقل لكم لولا تسبحون [١٤١].
- ... لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه، وتسبحوه بكرة وأصيلا [١٤٢].
- قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك، ونقدس لك [١٤٣].
- وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيرا [١٤٤].
- ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته [١٤٥].
- وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم [١٤٦].
- يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال [١٤٧].
- ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض، والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه [١٤٨].
- يسبح له ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم [١٤٩].
- يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس [١٥٠].
- يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض [١٥١].

---

(١٤٠) سورة الإسراء، الآية ٤٤.

(١٤١) سورة القلم، الآية ٢٨.

(١٤٢) سورة الفتح، الآية ٩.

(١٤٣) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(١٤٤) سورة طه، الآية ٣٣.

(١٤٥) سورة الرعد، الآية ١٣

(١٤٦) سورة الإسراء، الآية ٤٤.

(١٤٧) سورة النور، الآية ١٦.

(١٤٨) سورة النور، الآية ٤١.

(١٤٩) سورة الحشر، الآية ٢٤.

(١٥٠) سورة الجمعة، الآية ١.

(١٥١) سورة التغابن، الآية ١.

- وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير، وكنا فاعلين [152].
- إنا سخرن الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق [153].
- يسبحون الليل والنهار لا يفترون [154].
- وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم [155].
- فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار [156].
- الذين يحملون عرش ربك ومن حوله يسبحون بحمد ربهم [157].
- والملائكة يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن فى الأرض [158].
- إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته، ويسبحونه وله يسجدون [159].
- واذكر ربك كثيراً، وسبح بالعشى والإبكار [160].
- فسبح بحمد ربك، وكن من الساجدين [161].
- وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى [162].
- وتوكل على الحى الذى لا يموت، وسبح بحمده [163].

---

(١٥٢) سورة الأنبياء، الآية ٧٩.

(١٥٣) سورة ص، الآية ١٨.

(١٥٤) سورة الأنبياء، الآية ٢٠.

(١٥٥) سورة الزمر، الآية ٧٥.

(١٥٦) سورة فصلت، الآية ٣٨.

(١٥٧) سورة غافر، الآية ٧.

(١٥٨) سورة الشورى، الآية ٥.

(١٥٩) سورة الأعراف، الآية ٢٠٦

(١٦٠) سورة آل عمران، الآية ٤١.

(١٦١) سورة الحجر، الآية ٩٨.

(١٦٢) سورة طه، الآية ١٣٠.

(١٦٣) سورة الفرقان، الآية ٥٨.

ـ واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار [١٦٤] .

ـ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ، وقبل الغروب [١٦٥] .

ـ واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم [١٦٦] .

ـ فسبح باسم ربك العظيم [١٦٧] .

ـ سبح اسم ربك الأعلى [١٦٨] .

ـ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا [١٦٩] .

ـ ومن الليل فسبحه وأدبار السجود [١٧٠] .

ـ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم [١٧١] .

ـ ومن الليل فاسجد له ، وسبحه ليلاً طويلاً [١٧٢] .

ـ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً [١٧٣] .

ـ وسبحوه بكرة وأصيلا [١٧٤] .

ـ وإنا لنحن المسبحون [١٧٥] .

ـ فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون [١٧٦] .

---

(١٦٤) سورة غافر ، الآية ٥٥ .

(١٦٥) سورة قَ ، الآية ٣٩ .

(١٦٦) سورة الطور ، الآية ٤٨ .

(١٦٧) سورة الواقعة ، الآيتان ٧٤ ، ٩٦ . سورة الحاقة ، الآية ٥٢ .

(١٦٨) سورة الأعلى ، الآية ١ .

(١٦٩) سورة النصر ، الآية ٣ .

(١٧٠) سورة قَ ، الآية ٤٠ .

(١٧١) سورة الطور ، الآية ٤٩ .

(١٧٢) سورة الإنسان ، الآية ٢٦ .

(١٧٣) سورة مريم ، الآية ١١ .

(١٧٤) سورة الأحزاب ، الآية ٤٢

(١٧٥) سورة الصافات ، الآية ١٦٦ .

(١٧٦) سورة الصافات ، الآية ١٤٣ .

وبعد استعراض المواضع السالفات نستطيع القول بأن التسبيح يكون من جميع خلق الله، من الملائكة والإنس والجن(١٧٧) والطير والحيوان والنبات والجماد، تأمل الآيات: «والملائكة يسبحون بحمد ربهم ــ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ــ وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليماً غفوراً».

ونقف قليلاً أمام الآية الأخيرة التي تنص على أن التسبيح قاسم مشترك بين خلق الله جميعهم، أما بالنسبة للملائكة وبني البشر فهو أمر واضح شديد الوضوح، وإن كان التسبيح ــ كغيره من أعمال البشر ــ لا يكون إلا عن طواعية واختيار، وهو تكريم حظي به الإنسان وحده، دون غيره من المخلوقات.

وأما بالنسبة للحيوان والنبات والجماد فإن هذه الآية نص صريح على تسبيح هذه المخلوقات، وإن كنا لا نفقه هذا التسبيح، لأنه بمنطق مختلف عن ألسن البشر المعهودة لديها، جاء في تفسير الآية المذكورة:

«وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ــ أيها البشر ــ لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات»(١٧٨)، وهذه بعض الأحاديث التي تشير إلى تسبيح هذه المخلوقات:

١ - في حديث أبي ذر أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل(١٧٩).

٢ - دخل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم: «اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأحسن ذكراً لله منه»(١٨٠)

---

(١٧٧) لا يختلف الجن عن الإنس كثيرا فيا يختص بالتسبيح، إذ منهم المؤمن ومنهم الكافر، قال تعالى على لسانهم: «وأنا منا الصالحون، ومنا دون ذلك، كنا طرائق قددا» سورة الجن، الآية ١١.

(١٧٨) تفسير ابن كثير، ٣/٤٢.

(١٧٩) تفسير ابن كثير، ٣/٤٢.

(١٨٠) تفسير ابن كثير، ٣/٤٢.

٣- نهى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن قتل الضفدع ، وقال : « نقيقها تسبيح » (١٨١) .

٤- روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ــ قال : « قرصت نبياً من أنبياء الله نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه : أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ؟! فهلا نملة واحدة ؟ » (١٨٢) .

٥- قال صلى الله عليه وسلم : (إن نوحاً ــ عليه السلام ــ لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال : إنى قاص عليكما الوصية .. وآمركما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شىء ، وبها يرزق كل شىء) (١٨٣) .

ومن طريف ما يذكر هنا أن الشجرة التى تترك التسبيح تعاقب بتحور أوراقها إلى أشواك ، أى تتحول إلى : (عِضَه) وجمعها : (عِضاه) وهى كل شجر ذى شوك ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما عُضِهَتْ عِضاه إلا بتركها التسبيح » (١٨٤) ، « ومن العضاه الطلح والسَّلَم والسِّدْر والعَوْسج والغرقد » (١٨٥) ، وقد ورد الأخير فى حديث : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودى ، فتعال فاقتله إلا الغرقد ، فإنه من شجر يهود » (١٨٦) .

ونترك موضوع التسبيح إلى بعض التساؤلات فيما يختص بمنطق المخلوقات الأخرى فنقول :

- ١ ــ هل يفهم الإنسان منطق غيره من مخلوقات الله ، والحق أن هذا أمر أعطى لبعض أنبياء الله ، وأبرز مثل على هذا نبى الله سليمان ــ عليه السلام ــ الذى علمه

---

(١٨١) السابق ، ٣ / ٤٢ .

(١٨٢) السابق ، ٣ / ٣٥٩ .

(١٨٣) السابق ، ٣ / ٤٢ .

(١٨٤) لم أجده فى السنة .

(١٨٥) انظر لسان العرب ، مادتى : (ع ض هـ ــ غ ر ق د) .

(١٨٦) صحيح مسلم ، ٢ / ٥٦٥ .

الله منطق الطير، ومن ثم استطاع أن يفهم ما تقول النملة ، كما استطاع أن يحاور الهدهد ، وأن يناقشه فى سبب غيابه ، ثم يشرح ما كان من مملكة سبأ ومن ملكتهم بلقيس .. إلخ ، وكل هذا لا يكون إلا بمنطق الهدهد .

وإذا كان الإنسان لا يفقه منطق المخلوقات الأخرى إلا أن يهبه الله ذلك كما حدث لسليمان مثلاً فإن الباب مفتوح على مصراعيه أمام العلماء لدراسة المنطق أملاً فى مزيد من الاستفادة من تلك المخلوقات التى سخرها الله لخدمة الإنسان ، وقد تمكن العلم الحديث من كشف كثير من أسرار عالم الطير والحيوان ، سواء فى البر أو البحر عن طريق البحث فى منطق هذه المخلوقات (١٨٧) .

٢ ــ ومن ناحية أخرى فهل يستطيع طير أو حيوان أن يفهم لساناً من ألسنة البشر ؟ إن هذا مما لا سبيل إليه ، فقد رأينا أن كل الجهود لتعليم أرقى الحيوانات الإنجليزية قد باءت بالفشل ، إذ ليس لدى هذه المخلوقات من الاستعدادات الفطرية ما يمكنها من ذلك ، وكل ما تستطيع أن تُحَصِّلَه بضع إشارات وقليل من الكلمات بها يكون الإنسان قادراً على استخدامها وتسخيرها ، فى حدود تلك الوظيفة التى حددتها العناية الإلهية لها ، وإذا حدث ــ لا قدر الله ــ وفهم الحيوان لسان قوم من الأقوام فإن كل الأسرار يمكن أن تتسرب ، إلا إذا تمكن من إخفائها عن كل مخلوقات الله ، وهو أمر صعب بعيد المنال .

٣ ــ ومرة أخرى هل يمكن أن ينطق غير الإنسان ؟ إن هذا لا يحدث ، كما نرى ونشاهد ، إلا أن رب العزة الذى وهب الإنسان نعمة اللسان لهو قادر على إنطاق من شاء ، أو ما شاء ، كما حدث لعيسى ــ عليه السلام ــ الذى قال مبرئاً أمه ، برغم أنه كان فى المهد : «إني عبد الله ، آتانى الكتاب ، وجعلنى نبياً ... وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ...» (١٨٨) .

وفى آخر الزمان عند فساد الناس يخرج الله لهم دابة من الأرض تكلمهم ، تقول : يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة ، و يا فلان ، أنت من أهل النار ، قال تعالى :

---

(١٨٧) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة للدكتور نايف خرما ، ص ١٨١ .

(١٨٨) سورة مريم ، الآية ٣٠ .

« وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » (١٨٩).

ومن جانب آخر فإن أعضاء الكفار وجلودهم عندما تشهد عليهم يوم القيامة يقولون معاتبين: (لم شهدتم علينا؟) فترد قائلة: (أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء) كأنه ليس من طبيعتها النطق، ولكن الله هو الذى أجبرها على ذلك، فأنطقها.

٤ ـ وأخيراً نلاحظ أن القرآن أضاف الطير فقط إلى المنطق، فقال على لسان سليمان ـ عليه السلام: « .. يا أيها الناس علمنا منطق الطير.. » الآية، فهل يقتصر المنطق على الطير فقط دون غيره من المخلوقات؟ إن هذا ليتعارض مع ما يفهم من الآيات التالية: « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون، حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة: يا أيها النمل، ادخلوا مساكنكم، لا يحطمنكم سليمان وجنوده، وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكاً من قولها.. » فإذا كان المقصود منطق الطير وحدها، فكيف عرف سليمان منطق النملة، وهى ليست من الطير على وجه التحديد؟ إن هذا ليؤكد أن المقصود بمنطق الطير هنا منطق المخلوقات الأخرى غير الإنسان، وذلك من باب إطلاق الخاص على العام، كما نقول: تحرير رقبة، أى عتق عبد بكامله، وليس الرقبة وحدها، وكما نطلق العين على الجاسوس، وهكذا.

ولكن لماذا اختار القرآن الكريم الطير دون غيره ليضاف إلى المنطق؟ يبدو أن رب العزة جعل لسليمان ـ عليه السلام ـ جنوداً من الجن والإنس والطير، فناسب أن يعرف منطق هذه الطير، إذ هى جزء هام من جنوده.

وفى خاتمة حديثنا عن اللسان والمنطق نشير إلى تساؤل أخير، هل وردت لفظة: (لغة) التى نستخدمها الآن، هل وردت فى القرآن الكريم، ولماذا لم تستخدم بدلاً من اللسان؟ والواقع أن لفظة: (لغة) بشكل خاص لم ترد فى القرآن الكريم، وإنما وردت بعض مشتقاتها، كما يلى:

ـ وقال الذين كفروا: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه (١٩٠).

---

(١٨٩) تفسير ابن كثير، ٣/ ٣٧٤.

(١٩٠) سورة فصلت، الآية ٢٦.

- لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم (١٩١).
- والذين هم عن اللغو معرضون (١٩٢).
- والذين لا يشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مروا كراماً (١٩٣).
- وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه (١٩٤).
- يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها، ولا تأثيم (١٩٥).
- لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاماً (١٩٦).
- لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً (١٩٧).
- لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا (١٩٨).
- في جنة عالية، لا تسمع فيها لاغية (١٩٩).

وقد أمعنت النظر في هذه الآيات ثم راجعت تفسيراتها في محاولة للتعرف على معنى: (اللغو) كما جاء في القرآن الكريم فوجدت هذه المعنى يدور حول الميل والانحراف في الأقوال:

١ ـ بأن تكون عارية عن الفائدة أو المعنى.
٢ ـ أو ذات معنى ضعيف أو حقير أو تافه أو ساقط.
٣ ـ أو تدل على الهزل أو المزاح أو اللهو أو العبث أو الهذيان.
٤ ـ أو تكون قبيحة أو باطلة.

---

(١٩١) سورة البقرة، الآية ٢٢٥. سورة المائدة، الآية ٨٩.

(١٩٢) سورة المؤمنون، الآية ٣.

(١٩٣) سورة الفرقان، الآية ٧٢.

(١٩٤) سورة القصص، الآية ٥٥.

(١٩٥) سورة الطور، الآية ٢٣.

(١٩٦) سورة مريم، الآية ٦٢.

(١٩٧) سورة الواقعة، الآية ٢٥.

(١٩٨) سورة النبأ، الآية ٣٥.

(١٩٩) سورة الغاشية، الآية ١١.

فإذا ما قارنا هذا بما جاء فى لسان العرب وجدنا المعنى لا يختلف كثيراً ، يقول ابن منظور : (اللغو واللّغا السقط وما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع ... قالت عائشة : اللغو ما يجرى فى الكلام على غير عقد) (٢٠٠) .

أما عن اللغة فيقول ابن منظور : (أصلها لُغْوة من لَغا إذا تكلم ... قال الكسائى : لغا فى القول يلغى ، وبعضهم يقول : يَلْغو ، ولَغِيَ يَلْغى لغة ، ولَغا يلغو إذا تكلم ، واللغة اللّسْن ، وَحَدُّها أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وهى فُعْلَة من لغوت إذا تكلمت ... فى المحكم : الجمع لغات ولغون ، قال أبو عمرو لأبى خيرة : سمعتُ لغاتِهم ، فقال أبوخيرة : وسمعتُ لغاتَهم ، قال أبوعمرو : جلدك قد رق ، قال أبوسعيد : إذا أردت أن تنتفع بالأعراب فاستلغهم ، أى اسمع من لغاتهم من غير مسألة ... لغا فلان عن الصواب وعن الطريق ، إذا مال عنه ، قال ابن الأعرابى : واللغة أخذت من هذا ، لأن هؤلاء مالوا فيه عن لغة هؤلاء الآخرين .. واللغة النطق يقال هذه لغتهم التى يلغون بها أي ينطقون) (٢٠١) .

وأستطيع أن أقول الآن بعد استعراض معنى اللغو كما جاء فى الكتاب الكريم ، و بعد الرجوع إلى لسان العرب :

١ ــ إن : (اللغو) و : (اللغة) خرجا من مشكاة واحدة ، ومن أصل لغوى واحد ، هو : (ل غ و) هذا الجذر تفرغ منه بعد ذلك : (لغا ←ــــ يلغى ، لَغِيَ ←ــــ يَلْغَى) إلخ .

٢ ــ إن كلمة : (لغة) أصلها : (لُغْوة) ونظيره : (كُرة ــ قُلة ــ ثُبة ، كلها لاماتها واوات) (٢٠٢) أى أصلها على التوالى : كرو ــ قلو ــ ثبو (٢٠٣) .

---

(٢٠٠) لسان العرب ، مادة : (ل غ و) .

(٢٠١) لسان العرب ، مادة : (ل غ و) .

(٢٠٢) السابق .

(٢٠٣) نفر إلى العدو ، انظر أساس البلاغة ، مادة : (ث ب و) .

وفى محافظة الشرقية نلاحظ أن ذات الكلمة : (لغوة) (٢٠٤) تستخدم بمعنى اللهجة القاهرية المخالفة المحافظة فى جزئها الشمالى (٢٠٥) ، والذى يتميز بنطق القاف المجهورة الحنكية القصية ، على عكس اللهجة القاهرية التى تنطقها همزة ، كما يتميز أيضاً بنطق الجيم الانفجارية ـ الاحتكاكية ، وهى لثوية ـ حنكة فى حين ، أن الجيم القاهرية انفجارية قصية من مخرج الكاف .

فإذا وجد من ينطق الجيم والقاف القاهريتين قيل إن له لَغْوة ، فإذا خرج أحد أبناء اللهجة عن النطق المألوف المعهود إلى اللهجة القاهرية ، وبخاصة فى نطق الصوتين السابقين وُسم هذا الخارج بأنه : (يتعوج) إذ يعتبرون الخروج عن لهجتهم ـ إلى اللهجة القاهرية بشكل خاص ـ نوعاً من الانحراف ، وفى نفس الوقت ينظرون إليه بوصفه شكلاً من أشكال التعالى والانفصام عن مجتمعهم .

ثم توسع المعنى من الانحراف عن اللهجة الشرقاوية إلى اللهجة القاهرية إلى اللهجة ، أية لهجة ، لتصبح كلمة : (لَغْوة) مرادفة لهجة (٢٠٦) ، ومن ثم يبدو لنا ما يأتى :

٣ ـ إن كلمة : (لُغْوة) كانت بمعنى الانحراف عن لهجة القبيلة أو الحى أو البلد إلى لهجة أخرى ، ثم اتسع المعنى إلى كل لهجة مخالفة .

ومن ناحية أخرى تحولت : (لُغْوة) إلى : (لُغة) كما ذكرنا ، وبقيت زمناً على نفس الدلالة ، أى بمعنى اللهجة ، وهذا ما يفسر استخدام الكلمة من جانب القدماء ، فقد كانوا يطلقون على لغة القوم كلمة : (اللسان) أما اللغة فهى اللهجة فقط ، فقد رأينا أبا عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) يقول لأبى خيرة : (سمعتَ لغاتِهم) ، والرجل يقول : (وسمعتُ لغاتِهم) ولا يمكن أن يكون المقصود الفارسية أو السريانية مثلاً ، بل المراد بكل تأكيد لغات العرب ، أى لهجاتهم .

---

(٢٠٤) مع ملاحظة أن اللام مفتوحة .

(٢٠٥) الجزء الجنوبى يبدأ من الزقازيق إلى محافظة القليوبية المتاخمة للقاهرة ، أما الجزء الشمالى فيبدأ من شمال الزقازيق حتى نهاية المحافظة .

(٢٠٦) وهى كذلك فى كثير من اللهجات المصرية .

ثم توسع المعنى من جزء من اللغة ، إلى اللغة كلها ، فحدث الخلط الذى نراه ، أى استعمال الكلمة بمعنى اللهجة وبمعنى لغة القوم ، التى كان يستخدم لها كلمة : (اللسان) .

فهل نستطيع أن نحدد متى تغير الاستعمال من اللغة بمعنى اللهجة إلى اللغة بمعنى لغة القوم ؟ يبدو أن هذا كان بعد منتصف القرن الثانى الهجرى ، أو بمعنى آخر منذ بدأت العربية تتحول من لسان بنيها وأصحابها إلى بطون الكتب والمؤلفات .

ولذا فإن إطلاق القدماء مصطلح : (لغة) للدلالة على اللهجة ليس فيه وهم ولا خلط ، إذ لغة القوم كان مخصصاً لها مصطلح : (اللسان) وانما جاء الخلط من استخدام ذات المصطلح بمعنى لغة القوم ، وإهمال المصطلح المخصص لها ، والذى استخدمه القرآن الكريم ، أى : (اللسان) .

أما المحدثون فقد استخدموا كلمتا : (لهجة ــ لغة) دون خلط أو إيهام ، وهو ما لا بأس به ، أما أن نعيب على القدماء استخدام لغة بمعنى لهجة فلا محل له من اللوم أو التأنيب ، لأنهم جروا على الأصل ، وإنما العيب على من استخدم اللغة بمعنى لغة القوم فخلط بين المعنيين ، وأوقع فى اللبس والإيهام .

وعليه فإن مصطلح : (لغة) قد مر بالمراحل التالية :

المرحلة الأولى : لُغْــوة ــــــــه لغة = لهجة .

اللســـــــان = لغة القوم .

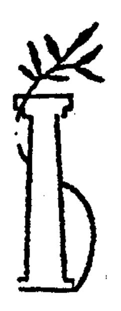
المرحلة الثانية : لغة اللهجــة

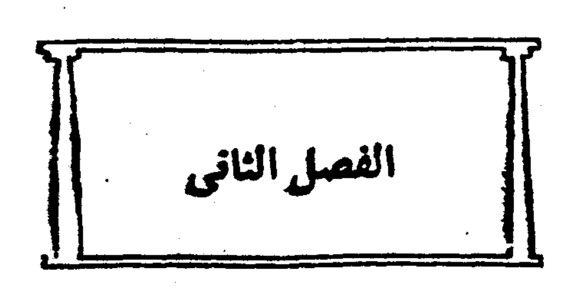
لغــة القـــوم

الآن : لهجة
لغة = لغة القوم .

ونختم حديثنا عن : (اللسان ــ المنطق ــ اللغة) بأن الأول يمكن أن يستخدم بمعنى لغة القوم ، فنقول اللسان العربى ، واللسان الفرنسى ... إلخ ، والمنطق للدلالة

على لغة الحيوان والنبات بل حتى الجماد ، هذا المنطق الذى يستخدم لغرضين ، التواصل بين هذه المخلوقات وتسبيح الله - سبحانه وتعالى - كما لا نلوم مَنْ استخدم اللغة بمعنى اللهجة ، بل نعيب من استخدم لغة بمعنى لغة القوم ، فخلط وأوهم ، أى من القدماء .





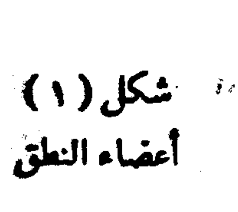
الفصل الثانى

أعضاء النطق

ـ ونقصد بها تلك الأعضاء التى تشترك اشتراكاً مباشراً فى نطق الأصوات اللغوية ، إذ هناك أعضاء لها دور أساسى وحيوى فى عملية النطق مثل الرئتين والقفص الصدرى والقصبة الهوائية ، فبرغم أهميتها الواضحة ليس فى عملية النطق وحدها ، بل فى التنفس واستمرار الحياة نفسها ، نقول برغم ذلك فإننا لا نتعرض لها لأنها لا تؤثر بشكل مباشر فى عملية النطق ، وهكذا :

والأعضاء التى نقصدها هى على وجه التحديد :

ـ اللسان .
ـ الشفتان .
ـ الحنجرة .
ـ الحلق .
ـ الفم .
ـ الأنف .
ـ الحنك .
ـ الأسنان .



شكل (١)
أعضاء النطق

وسوف نرى أن هذه الألفاظ جميعها ذكرت ــ بشكل أو بآخر ــ في القرآن الكريم ، اللهم إلا الحنك واللهاة .

وقبل الحديث عن كل عضو من هذه الأعضاء بشكل منفصل نشير إلى أن النطق من أهم وظائف هذه الأعضاء إن لم يكن أهمها على الاطلاق ، وليس وظيفة ثانوية إلى جانب الوظائف الأخرى كالتنفس أو مضغ الطعام .. إلخ إذ النطق أمر حيوى شديد الأهمية بالنسبة للإنسان ، وهو إن كان وظيفة واحدة من وظائف الأعضاء إلا أنها ليست وظيفة (١) ثانوية ألبتة .

أ ــ اللسان :

تناولنا هذا اللفظ من جميع جوانبه عدا الجانب المتعلق بكونه عضواً من أعضاء النطق (٢) ، والذى نعالجه الآن ، فنقول :

إننا نلاحظ بادئ ذى بدء أن لفظ اللسان تكرر فى القرآن خمساً وعشرين مرة ، وهو إشارة واضحة ــ فيما يبدو ــ إلى دوره الهام فى عملية النطق ، هذا الدور الذى يتمثل فيما يلى :

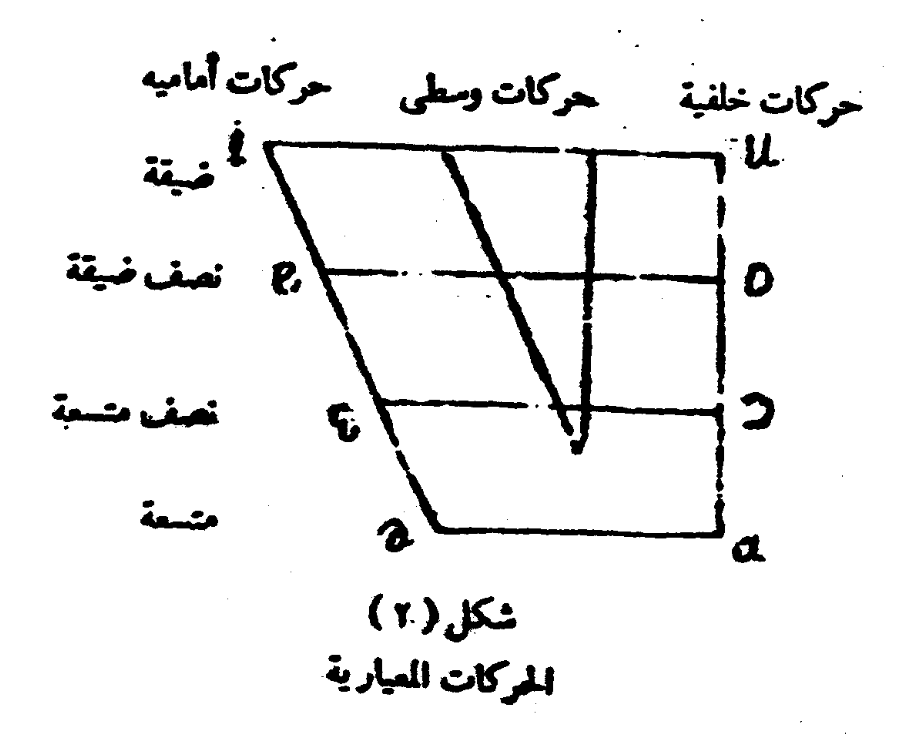
١ ـ له دور أساسى فى نطق الحركات ، فإذا تحرك الجزء الأمامى منه كانت الحركة أمامية ، وإذا تحرك الجزء الخلفى منه كانت الحركة خلفية ، وإذا ارتفع الجزء الأوسط منه كانت الحركة وسطى .

بل إن مقدار الارتفاع يؤثر على الحركة ضيقاً أو اتساعاً ، فإذا ارتفع إلى أقصى ارتفاع ممكن له ضاقت المسافة بينه وبين الحنك ، فسميت الحركة ضيقة ، وإذا انخفض إلى أدنى حد اتسعت المسافة بينه وبين الحنك ، سميت الحركة متسعة . وبين هاتين المنزلتين منزلتان أخريان ، يرتفع فى إحداهما إلى ثلث المسافة التى يمكن أن يرتفعها ، فتسمى الحركة نصف متسعة ، لأنها إلى الحركة المتسعة

(١) انظر علم اللغة العام ، القسم الثانى (الأصوات) للدكتور كمال بشر ، ص ٨٤ .

(٢) جاء ذلك فى موضعين : (لا تحرك به لسانك ــ ولساناً وشفتين) .

أقرب ، وتسمى الأخرى نصف ضيقة ، لأنها إلى الحركة الضيقة أقرب ، إذ يرتفع اللسان إلى ثلثي المسافة التي يمكن أن يرتفع إليها .



شكل (٢)
الحركات المعيارية

٢- اللسان له دور أساسي في عملية الترقيق والتفخيم ، فإذا كان شكله مقعراً ، بأن ارتفع من الأمام والخلف كان الصوت المنطوق (٣) مفخماً ، وإذا لم يحدث ما سبق كان الصوت مرققاً .

٣- يشترك اللسان بشكل مباشر في نطق الصوامت العربية (٤) الآتية : (التاء ـ الثاء ـ الجيم ـ الخاء ـ الدال ـ الذال ـ الراء ـ الزاى ـ السين ـ الشين ـ الصاد ـ الضاد ـ الطاء ـ الظاء ـ الغين ـ القاف ـ الكاف ـ اللام ـ النون ـ الواو ـ الياء = ٢١ صامتاً) .

فإذا جمعنا إلى الصوامت السابقات الحركات العربية الست : (الفتحة ـ ألف المد ـ الكسرة ـ ياء المد ـ الضمة ـ واو المد) وجدنا أن اللسان يشترك بشكل

(٣) الأصوات المفخمة هى : (الصاد ـ الضاد ـ الطاء ـ الظاء + القاف ـ الغين ـ الخاء + الراء واللام في بعض السياقات) إضافة إلى الحركات ـ طويلة أو قصيرة ـ التى تسبق بصامت مفخم ، والمرققة ماعدا ذلك .

(٤) نقصد الصوامت ـ والحركات أيضاً ـ كما ينطقها القراء المصريون المجيدون برواية حفص عن عاصم .

أساسى أو بشكل مباشر، أو بالشكلين (*) معاً فى نطق سبعة وعشرين صوتاً من مجموع الأصوات العربية البالغ عددها أربعة وثلاثون صوتاً ، ولا يبقى من الأصوات العربية ما لا يتدخل اللسان فى نطقها غير هذه الصوامت : (الهمزة — الهاء — العين — الحاء — الباء — الميم — الفاء) وهى كما نرى مخرجها : الحنجرة أو الحلق أو الشفتان السفلى مع الأسنان العليا .

ومن ثمّ فاللسان يشترك فى نطق أربعة أخماس الأصوات العربية ، حركاتها وصوامتها ، أى حوالى ثمانين فى المائة تقريباً ، مع التسليم بأن اللسان لا يقوم بعمله وحده ، بل بالتعاون مع غيره من أعضاء النطق ، كما نرى مثلاً فى الحركات حيث نجد الشفتين والوترين الصوتين شركاء له فى إنتاج الحركة ، أية حركة .

ومن ناحية أخرى فإنه يبدو لنا أن الأصوات العربية جميعاً ليست بناجية من دور اللسان فى نطقها ، حتى تلك الصوامت السبعة التى ذكرناها ، ولا تدخل للسان فى شئونها ، فكيف يكون ذلك ؟ إن الأصوات العربية مقسمة إلى مرقق ومفخم ، واللسان هو الذى يحدد ذلك ، فإذا كان الصوت مفخماً فلا يكون التفخيم إلا بتقعير اللسان — مع رجوعه إلى الخلف — وإن كان الصوت مرققاً كان دور اللسان سلبياً ، أو بمعنى آخر كان الصوت مفخماً بالقوة ، أى أنه يمكن أن يفخم من الناحية النظرية ، ولكن العربية اختارت له الترقيق .

فالأصوات العربية المرققة ، وخاصة الأصوات التى لا نرى للسان دوراً مباشراً فى نطقها ، أى : (الهمزة — الهاء — العين — الحاء — الباء — الميم — الفاء) كل هذه الأصوات يمكن أن تفخم ولو خطأ ، أى أن على اللسان هنا أن يؤدى دوراً ما ، هذا الدور يتمثل فى حياده وعدم تدخله بالتقعير والرجوع إلى الخلف ، هذا التدخل الخاطئ هو ما يؤدى إلى نطق غير صحيح للأصوات المرققة .

وقانون الترقيق والتفخيم من أهم القوانين الأصواتية فى النطق العربى ، وتكمن أهميته فى كونه يتدخل فى تشكيل جميع أصوات العربية بلا استثناء ، ومن ثم كانت

(*) مثل الأصوات المفخمة ، حيث يتحكم اللسان فى عملية التفخيم نفسها — كما رأينا — ثم يشترك بشكل مباشر فى نطق الأصوات نفسها .

العناية به من قبل القدماء ، لأنه إذا فقد توازنه عند نطق صوت من الأصوات اختل الصوت اختلالاً واضحاً صراحاً ، يقول ابن الجزرى :

(أصل الخلل الوارد على ألسنة القراء فى هذه البلاد ، وما التحق بها ، هو إطلاق التفخيمات والتغليظات ، على طريقة ألفتها الطباعات ، تلقيت من العجم ، واعتادتها النبط ، واكتسبها بعض العرب ، حيث لم يقفوا على الصواب ممن يرجع إلى علمه ، و يوثق بفضله وفهمه ، وإذا انتهى الحال إلى هذا فلابد من قانون صحيح يرجع إليه ، وميزان مستقيم يعول عليه (٦)) .

صفوة القول أن اللسان لا يشترك فى نطق أربعة أخماس العربية فقط ، بل يتعدى تأثيره إلى أصوات اللغة كلها ، دون استثناء ، كما رأينا ، ولهذا سميت اللغة باللسان ، كما جاء فى الكتاب العزيز.

وقد تمكن اللسان من لعب هذا الدور الفريد فى عملية النطق بسبب مرونته الشديدة ، وحرية حركته التى لا تحدها حدود ، بما لا يقارن بأى عضو آخر من أعضاء النطق المتحركة ، إذ يستطيع أن يتحرك إلى أعلى أو أسفل ، أو ذات اليمين وذات الشمال ، للأمام أو للخلف ، كل ذلك بدرجات متفاوتة ، وبدقة متناهية ، حسب المطلوب ، دون زيادة أو نقصان ، فى حين أن الشفتين واللهاة والحلق ، لا يمكنها أن تتحرك بنفس الطريقة ، بل حركة كلٍ محدودة ، وباتجاه واحد دون أن تتعداه إلى كافة الاتجاهات والأصعدة ، كما هو شأن اللسان .

الشفتان :

من أهم أعضاء النطق ، وهما من الأعضاء المتحركة ، وإن كانت حركتها لا تقارن بحركة اللسان ، كم أسلفنا ، كما أنهما لم يذكرا فى الكتاب الكريم إلا مرة واحدة ، هى فى قوله تعالى : « ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين » (٧). فكما جعل الله لنا عينين أداة للإبصار ، فقد خلق أدوات الكلام ، وهى اللسان والشفتان ، إذ

(٦) النشر ، ١/ ٢١٥ .

(٧) سورة البلد ، الآيتان ٨ ، ٩ .

لا يمكن الكلام بدون هذه الأعضاء المذكورة، صحيح أن العملية كلها تتم بالتعاون مع أعضاء أخرى، كما هو المعروف المشهود، ولكن لهذه الأعضاء الدور الأساسي والأهم، كما رأينا عند الحديث عن اللسان، وكما نرى الآن ونحن نتحدث عن الشفتين، وعن وظائفهما، وهي:

أولاً: للشفتين دور مباشر في نطق الحركات العربية فضلاً عن هذه الصوامت: (الياء ـ الواو ـ الميم ـ الباء ـ الفاء).

ثانياً: في نطق الأصوات العربية يخرج الهواء من طريقين، من الأنف أو الفم أو منهما معاً، وهنا تقسم الأصوات العربية إلى ثلاثة أقسام:

□ الأول ـ الأصوات الأنفية: أي التي يخرج هواؤها من الأنف فقط، وهي الميم حيث تقوم الشفتان بإغلاق طريق الهواء إغلاقاً محكماً، ثم النون حيث يقوم اللسان بمهمة الإغلاق، وتكون الشفتان مفتوحتين، أو إن شئت فقل محايدتين، فقد كفاهما اللسان مؤونة الإغلاق المحكم لطريق الهواء.

□ الثاني ـ الأصوات الأنفمية: في صوتي الميم والنون قد يكون إغلاق طريق الهواء غير محكم، بمعنى أن جزءاً من الهواء يتسرب من طريق الفم، وهذا ما يكون في ثلاث حالات:

١ ـ الإخفاء الشفوي، كما في: (هم به ـ من بعد) (٨).

٢ ـ إخفاء النون الساكنة قبل الصوامت الآتية: (التاء ـ الثاء ـ الجيم ـ الدال ـ الذال ـ الزاي ـ السين ـ الشين ـ الصاد ـ الضاد ـ الطاء ـ الظاء ـ الفاء ـ القاف ـ الكاف) كما في: (أنزلنا ـ أنظرني ـ أنت ـ أنفسهم) مثلاً.

٣ ـ الإدغام الناقص: أي إدغام النون الساكنة في الواو أو الياء، مثل: (من وال ـ من يوم).

---

(٨) للإخفاء الشفوي صورتان، الميم الساكنة قبل الباء، كما في: (هم به) والنون الساكنة التي تتحول إلى ميم بسبب الباء بعدها، كما في: (من بعد) وفي هذه الحالة نجد ميماً صغيرة أعلى النون، وذلك في الرسم المصحفي.

ومن المعروف أن طريق الفم إذا أغلق فإن طريق الأنف يفتح بواسطة انخفاض اللهاء، التى تتحكم فى طريق الأنف، إذ هى بوابتها الوحيدة للتى تفتح عند الحاجة، ومن الضرورى الإشارة هنا إلى أن الأصوات الأنفمية فى العربية تختلف عن نظائرها فى اللغات الأخرى، فلا جدال فى أنها تحدث نتيجة خروج الهواء من الأنف والفم فى وقت واحد، إلا أن الأنفمية العربية تتميزعن غيرها بخروج الجزء الأكبر من الهواء من الأنف، بحيث تجب الإشارة إلى أن ما يخرج من طريق الفم هو جزء قليل جداً، ومن ثم فإننا نجد فى الحالات الثلاث: (الإخفاء الشفوى ـ إخفاء النون ـ الإدغام الناقص) نجد كمية الهواء التى يسمح بخروجها من طريق الفم نجدها محدودة جداً إذا قورنت بما يخرج من طريق الأنف، وهذا ما جعل علماء العربية القدماء يسوون بين الأنفية والأنفمية ولا يفرقون، فهى الغنة فى كليهما، فقد غفلوا عن الفارق بين الحالتين، لأن الجزء الأكبر من الهواء فى نطق الأصوات الأنفمية يخرج من طريق الأنف، وما يخرج من طريق الفم قليل جداً، ولعلنا نعود إلى هذه النقطة بشىء من التفصيل فيما بعد.

□ الثالث ـ الأصوات الفموية: وفيما عدا الميم والنون ـ إضافة إلى الأصوات الأنفمية (٩) ـ فإن الهواء فى بقية الأصوات العربية يخرج من طريق الفم، أو بمعنى أدق من طريق الشفتين.

ثالثاً: وترتيباً على ما سبق نستطيع القول بأن الشفتين هما مفتاح الكلام ومغلاقه، ودورهما هنا يشبه دور اللسان، أى أنهما يتحكمان فى نطق جميع الأصوات العربية، صوامتها وحركاتها، فإما أن يفتحا الفم، وإما أن يغلقاه، هذا الإغلاق الذى يحدث مع صوت الميم، وقد يقوم اللسان بهذه العملية، كما فى نطق النون، وبرغم ذلك يكون لهما دور فاعل أيضاً، ففى هذا الصوت الأنفى تجد الشفتين مفتوحين، كما أشرنا، و يتعذر نطق النون مع إغلاقهما.

فإذا قلنا إن الأصوات العربية جميعاً ليست بمنجاة من تأثير اللسان فإن للشفتين أيضاً ينطبق عليهما هذا القول إلى حد كبير، ولذا فإننا نفهم الامتنان فى قوله تعالى:

---

(٩) تجب الإشارة إلى أن الأصوات الأنفمية العربية ليست وحدات أصواتية مستقلة (فونيمات) وإنما أعضاء فى وحدتى الميم والنون.

«ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين » بأنه امتنان بنعمتى البصر والنطق ، وهو ما أشار إليه الحافظ ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية .

جـ ـ الحنجـرة :

تقع أسفل الحلق ، وأعلى القصبة الهوائية (الممر المؤدى إلى الرئتين) وهى أشبه بحجرة ذات اتساع معين ، مكونة من عدد من الغضاريف ، أحدها وهو الجزء العلوى منها ناقص الاستدارة من الخلف ، وعريض بارز من الأمام ، و يعرف الجزء الأمامى منه بتفاحة آدم (١٠) .

وتؤدى الحنجرة دورها الحيوى الهام فى عملية النطق بواسطة الوترين الصوتيين ، وهما عبارة عن شفتين تمتدان بالحنجرة نفسها أفقياً من الخلف إلى الأمام ، و يلتقيان عند ذلك البروز الذى نسميه بتفاحة آدم ، و يسمى الفراغ بين الوترين (١١) بالمزمار ، و يكمن دور هذين الوترين فيما يلى :

١ - هما البوابة الأولى لجهاز النطق ، فإن أغلقا امتنع النطق ألبتة ، وإن فتحا ـ بطريقة أو بأخرى ـ كان النطق ممكناً ، وكان التنفس أيضاً .

٢ - إنهما يتحكمان فى عملية الجهر والهمس ، فإن انفرجا انفراجاً متناسباً ، بحيث يسمحان للهواء بالمرور من خلالهما ، دون أن يقابله أى اعتراض أو مانع كان الهمس ، فى مقابل الجهر الذى يحدث نتيجة انضمام الوترين ، أو انطباقهما ، بشكل جزئى ، لا كلى ، بحيث يتمكن الهواء المندفع من خلالهما أن يفتحهما ، و يغلقهما بسرعة وانتظام فائقين ، ومن ثم ينتج ما يسمى باهتزاز الأوتار ، هذا

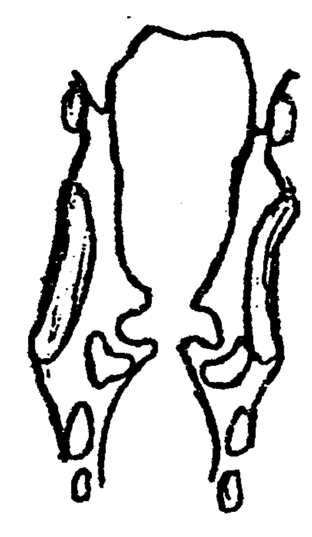
---

(١٠) و يقع فوق الحنجرة شىء يشبه اللسان ، و يسمى : (لسان المزمار) ووظيفته حماية الحنجرة وطريق التنفس كله أثناء عملية البلع ، و يبدو أنه لا دخل له فى تكوين الأصوات بصورة مباشرة ، علم اللغة العام (الأصوات) للدكتور كمال بشر ، ص ٨٤ .

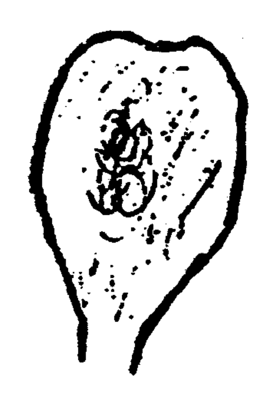
(١١) السابق .



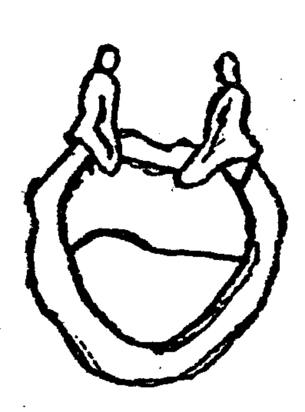
غضاريف الحنجرة



قطاع طولى من الحنجرة



لسان المزمار، ويشبه ورقة الشجرة

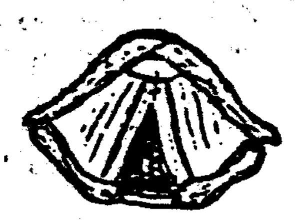


الحنجرة من أعلى

الوتران الصوتيان



الجهر



الهمس



همزة القطع

شكل (٣)

الحنجرة

الاهتزاز الذى يحدث نغمة موسيقية تختلف فى الدرجة والشدة ، تعرف بالجهر(١٢) .

٣- الأوتار الصوتية فضلاً عما سبق لها دور مباشر فى نطق صوتى الهمزة والهاء ، وكلاهما مهموسان ، وإن كان الأول انفجاريا والثانى احتكاكى .

وقد وردت : (حنجرة) فى موضعين فقط من القرآن الكريم وإن كانت مجموعة ، غير مفردة :

١ ــ « إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا » (١٣) .

٢ ــ « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ، ولا شفيع يطاع » (١٤) .

جاء فى لسان العرب : (الحنجرة طبقان من أطباق الحلقوم ، مما يلى الغلصمة ، وقيل الحنجرة رأس الغلصمة (١٥) ، حيث يحدد ، وقيل هو جوف الحلقوم ، وهو الحنجور ، والجمع حنجر ، وقوله تعالى : « إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » أراد الفزع يشخص قلوبهم ، أى تقلص إلى حناجرهم ، وفى حديث القاسم : سئل عن رجل ضرب حنجرة رجل فذهب صوته ، قال : (عليه الدية) الحنجرة الغلصمة ، حيث تراه ناتئاً من خارج الحلق ، والجمع حناجر ، ومنه : (وبلغت القلوب الحناجر) أى صعدت عن مواضعها من الخوف إلى الحناجر ، الأزهرى قال فى

---

(١٢) السابق .

(١٣) سورة الأحزاب ، الآية ١٠ ، وعن أبى سعيد الخدرى : قلنا يوم الخندق : يارسول الله هل من شىء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا .. انظر تفسير ابن كثير ٣ / ٤٧٢ .

(١٤) سورة غافر ، الآية ١٨ . قال قتادة : وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ، ولا تعود إلى أماكنها ، ابن كثير ، ٤ / ٧٥ .

(١٥) فى لسان العرب : (الغلصمة : رأس الحلقوم ، والموضع الناتىء فى الحلق) مادة : غ ل ص م ، ويبدو أن المقصود هو لسان المزمار .

الحلقوم: والحنجور مخرج النفس، لا يجرى فيه الطعام أو الشراب .. وقال النابغة:

من الواردات الماء بالقاع تستقى
بأعجازها قبل استقاء الحناجر

إنما جعل للنخل حناجر، على التشبيه بالحيوان، وحنجر الرجل ذبحه) وفى موضع آخر يقول ابن منظور: (وفى حديث الخوارج: (يقرأون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، وتراقيهم) والمعنى أن قراءتهم لا يرفعها الله، ولا يقبلها، فكأنها لم تجاوز حلوقهم، وقيل المعنى: لا يعملون بالقرآن، ولا يثابون على قراءته، ولا يحصل لهم غير القراءة (١٦).

وهذا الحديث الذى أشار إليه ابن منظور هنا وجدته فى جمع الجوامع للسيوطى بأكثر من رواية، مثل: (سيخرج قوم يقرأون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية) (١٧) وفى رواية أخرى (.. يقرأون القرآن، لا يجاوز حناجرهم) (١٨).

وهنا نجد بعض الأسئلة يفرض نفسه، مثل: إذا كانت كلمة حنجرة قد وردت فى الكتاب الكريم والحديث الشريف، كما رأيناها أيضاً فيا نقلنا عن ابن منظور، إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يرد لها ذكر عند علماء العربية القدماء عند الحديث عن المخارج وأعضاء النطق؟ هل هم لم يعرفوها، أم لم يتبينوا دورها بشكل واضح؟

الراجح — فيا أرى — أنهم عرفوها، لكنهم لم يدركوا دورها، لأن هذا الدور يعتمد على الوترين الصوتيين، وهما لم يكونا معروفين لدى القدماء، بسبب نقص المعلومات فى التشريح ووظائف الأعضاء (١٩)، ولو فطنوا إلى وجود هذين الوترين لنسبوا الهمزة والهاء إلى الحنجرة، وليس إلى أقصى الحلق، فإن الحنجرة بوتريها جزء منفصل وعضو مختلف عن الحلق.

(١٦) لسان العرب، مادة: (ح ن ج ر).

(١٧) حديث رقم ١٤٧٨٢.

(١٨) حديث رقم ١٤٧٧٩.

(١٩) ويرى أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين أن علماء اللغة القدماء كانوا بمعزل عن التقدم العلمى فى المجالات الأخرى، ولذا لم يفيدوا منها، أو بمعنى آخر لم تكن العلوم تفيد من بعضها وترفد بعضها، كما هو حاصل الآن.

ونعود لنتساءل مرة أخرى: إذا كانوا لم يعرفوا الوترين، وعليهما تعتمد عملية الجهر والهمس فعلى أى أساس بنوا تقسيمهم للأصوات العربية إلى مجهور ومهموس؟ وبخاصة أن هذا التقسيم مقبول فى مجمله، إذ لا يلاحظ عليه غير قليل من الملاحظات، هى:

١ ــ اعتبارهم الهمزة والقاف والطاء من المجهورات، وهو أصوات مهموسة الآن، بلا شك، فأما الصوتان الأخيران فلعلهما كانا مجهورين، وحدث لهما إهماس، وهو أمر ممكن، أما الهمزة العربية فقد شرد القدماء فى علاج أمرها شروداً عظيماً، وخلطوا خلطاً كبيراً، ومن ثم لم يُحْكموا وصفها، ولم يدركوا كنهها وحقيقتها، ولذا كان وصفها بالجهر ليس بالغريب أو المستغرب عندهم، أو لعلهم كانوا ينطقونها عند ذوقها أو اختبارها متبوعة بألف مد، وهو حركة مجهورة، على أية حال فإن وصفها بالجهر ــ أى الهمزة ــ خطأ صراح، لا سبيل للدفاع عنه، أو إيجاد المبررات له.

٢ ــ لم يشيروا صراحة إلى أن الحركات العربية ــ وبخاصة القصيرة ــ كلها مجهورة، صحيح أنهم يصرحون (٢٠) بأن الأصوات المهموسة عشرة: جمعوها فى قولهم: (سكت فحثه شخص) أى: السين ــ الكاف ــ التاء ــ الفاء ــ الحاء ــ الثاء ــ الهاء ــ الشين ــ الخاء ــ الصاد) فأين الحركات؟ يصرحون (٢١) بالألف والواو والياء، فإذا استطعنا القول بأن المقصود بالأخيرين الواو والياء باعتبارهما حركات وصوامت، أى الواو فى مثل: وقف أو يقول، والياء فى مثل يعد أو عيد، فأين الحركات القصار؟ الحق أنها لم تنل من علماء العربية ما هى أهل له من الاهتمام، بسبب الاعتماد الكبير على الرسم، حيث الحركات القصار ورموزها ــــ َ ُ ِ ــــ ليست متصلة بغيرها من رموز الحركات الطوال والصوامت.

إذا سلمنا بما سبق فكيف تسنى للقدماء تقسيم الأصوات العربية إلى مهموس ومجهور، بهذه الدقة التى رأيناها، وبخاصة أن التعريف الذى قدمه سيبويه ــ ونقل عنه ــ لكل من الجهر والهمس تعريف غامض، وقد ناقشت هذا التعريف فى قراءة

---

(٢٠) انظر مثلاً النشر لابن الجزرى، ١/٢٠٢ واللطائف للقسطلانى، ١/١٩٧.

(٢١) اللطائف، ١/٢٠٤ــ٢٠٦.

الأربعة الشواذ (٢٢) ، وخلصت إلى أن سيبويه وغيره من العلماء وإن لم يعرفوا كنه الوترين ودورهما فى عملية الجهر والهمس فإنهم أحسوا بهذا الاهتزاز، أو على الأقل أحسوا بشيء ما يفرق بين المهموس والمجهور، فقد كان ذوق الأصوات بواسطة الأذن هو أداتهم الوحيدة، فلابد أن تكون على قدر كبير من الرهافة والحساسية، بحيث لا يفوتها أن تلتقى هذا الفارق الواضح بين هذين النوعين من الأصوات العربية، ولعلنا نعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

د ـ الحلق:

هو الجزء الواقع بين الحنجرة وبين التجويف الأنفى من أعلى ولسان المزمار وقاعدة اللسان من أسفل، ولذا فإنه يعتبر فى جزئه الأعلى ممراً مشتركاً بين الطعام والشراب من ناحية، والهواء الداخل إلى الرئتين أو الخارج منها من ناحية أخرى، ويسمى أحياناً بالفراغ الحلقى، وهو يشبه الأنبوبة المرنة التى يمكن أن تتسع أو تضيق حسب الطلب.

وعلى أية حال فإن الحلق يعتبر من الأعضاء الثابتة غير المتحركة، اللهم إلا ما ذكرنا عن ضيقه واتساعه إضافة إلى أمرين يؤثران على طوله، وهما ارتفاع الحنجرة إلى أعلى، وارتفاع اللهاة إلى الجدار الخلفى للحلق، والارتفاع فى كلتا الحالتين يؤدى إلى تقصير ذلك الأنبوب المسمى بالحلق (٢٣).

وتكمن وظيفة الحلق فيما يلى:

١ ـ إنه يشكل غرفة رنين لذلك الهواء الخارج من الرئتين عبر الوترين الصوتيين، كما يكون جسم الكمان غرفة رنين لأوتار هذه (٢٤) الآلة.

٢ ـ الحلق مخرج لصوتى العين والحاء فقط، هذا عند المحدثين، أما القدماء فقد

---

(٢٢) رسالة دكتوراه، مخطوط بكلية دار العلوم، انظر ص ١٥٨.

(٢٣) الأصوات لأكونر، ص ٣٠ ـ ٣٣.

(٢٤) السابق.

جعلوا الحلق مخرجاً للهمزة والهاء (أقصى الحلق) والعين والحاء من وسطه والغين والخاء من أدناه.

أما الهمزة والهاء فلا يمكن أن يخرجا إلا من الحنجرة، وبالتحديد من الوترين، ولا يمكن القول بأن تطورا فى المخرج قد حدث، إلا أن حركة الحنجرة صعوداً وهبوطاً ـ والتى أشرنا إليها سابقاً ـ ربما تكون السبب فى إيهام علماء العربية القدماء بأن الصوتين من الحلق، وليسا من الحنجرة.

ومن ناحية أخرى فلا يمكن القول ألبتة بأن الغين والخاء كانا حلقيين، ثم تطور المخرج إلى أقصى الحنك مع أقصى اللسان، قد يكون هذان الصوتان أعمق من القاف اللهوية، ولكننى لا أتصور أنهما كانا حلقين (٢٥)، بيد أننا نستطيع القول بأن حركة اللهاة بارتفاعها وانخفاضها ـ كما يحدث للحنجرة ـ ربما كان له نفس الدور الذى سبقت الإشارة إليه، وهو إيهام أن الغين والخاء من الحلق، أو من أدناه، كما أشار القدماء.

وفى قراءة المدينة (٢٦) ذكرت أن هذين للصوتين لو كانا من الحلق لما جاز إخفاء النون قبلهما، كما جاء فى قراءتى نافع بن أبى نعيم (ت ١٦٩ هـ) وأبى جعفر يزيد بن القعقاع (ت ١٣٠ هـ) إذ يجمع القراءة العشرة ـ بل والأربعة الشواذ ـ على إظهار النون الساكنة قبل الهمزة والهاء والعين والحاء، فمخرج هذه الأصوات مستقل تماماً عن مخرج النون، أو بمعنى آخر لا يشترك اللسان اشتراكاً مباشراً فى نطقها، كما هو الحال مع الغين والخاء سواء أقلنا إنهما أعمق من القاف أو قلنا العكس.

على أية حال فإننا نعتبر وصف القدماء للهمزة والهاء بأنهما من أقصى الحلق، والغين والخاء من أدنى الحلق خطأ ووهماً؟ ولعل الذى أوقعهم فى هذا حركة كل من الحنجرة واللهاة، أعلى وأسفل، تلك الحركة التى تؤثر على طول الحلق وقصره.

ومن ناحية أخرى فإننا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا كلمة الحلق لم ترد ألبتة، وانما الذى ورد هو الحلقوم، وذلك فى موضع واحد، هو قوله تعالى: «فلولا إذا

---

(٢٥) هذا ما يراه أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين، انظر مثلاً: العربية لغة العلوم والتقنية، ص ٤٦.

(٢٦) رسالتى للماجستير، مخطوط بدار العلوم، انظر ٩٨، ٩٩.

بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ، ولكن لا تبصرون) (٢٧) والحلقوم هنا هو الحلق ، فى لسان العرب (٢٨) : (وا لمقوم الحلق ، فعلوم عند الخليل ، وفعلول عند غيره) .

ومعنى الآية السابقة فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم ، وذلك حين الاحتضار ، حيث يرى الإنسان ، لكنه لا يملك الحديث عما يرى (٢٩) ، إذ بدأ جهاز النطق بالتعطل والتوقف إلى الأبد ، لأن الروح إذا وصلت الحلقوم فكأن هذه بداية النهاية للحركة الدائبة النشطة لهذا الجهاز ، منذ الميلاد حتى هذه اللحظة ، لحظة الاحتضار .

ولهذه الآية نظير آخر ، هو قوله تعالى : « كلا إذا بلغت التراقى وقيل : من راق ؟! » (٣٠) أى انتزعت الروح من الجسم ، وبلغت (٣١) الترقوة ، وفى حديث الخوارج السابق : (يقرأون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ..) .

هـ ـ الفـــم :

للهواء عند خروجه من الرئتين طريقان ، الأنف أو الفم ، وهذا الأخير هو الطريق الأساسى ، فعنه يخرج هواء جميع الأصوات العربية كلها عدا النون والميم ، حيث يخرج الهواء من الأنف ، إضافة إلى الإخفاء ، والإخفاء الشفوى والإدغام الناقص حيث يخرج الهواء من الطريقين معاً .

ومن ناحية أخرى فقد يدخل الهواء إلى الرئتين من طريق الفم ، كما يحدث فى الأصوات الشفطية التى تنطق بواسطة شفط الهواء ، وتوجد هذه الأصوات فى بعض اللغات الإفريقية (٣٢) ، ولعلنا نفصل هذه النقطة فى مكان آخر .

---

(٢٧) سورة الواقعة ، الآيات من ٨٣ ـ ٨٥ .

(٢٨) لسان العرب ، مادة : (ح ل ق) .

(٢٩) انظر تفسير ابن كثير ، ٤ / ٢٢٩ ، ٣٠٠ ، الظلال ، ٧ / ٧٠٨ .

(٣٠) سورة القيامة ، الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٣١) تفسير ابن كثير ، ٤ / ٤٥١ .

(٣٢) لغات إفريقية لجرينبرج ، ص ١٨ .

وعليه فإن وظيفة الفم أو التجويف الفموى المقابل للتجويف الأنفى هذه الوظيفة تنحصر فى خروج الهواء ، كما فى معظم الأصوات العربية ، أو دخوله ، كما فى الأصوات الشفطية ، ويحتوى التجويف الفموى ــ كما هو معروف ــ على اللسان والحنك واللثة والأسنان ، وبوابة كل ذلك ، بل بوابة جهاز النطق كله هو الشفتان ، كما أسلفنا ، و يتم التحكم بالتجويف الفموى ــ ضيقاً واتساعاً ــ بواسطة تحريك الفك الأسفل ، أعلى وأسفل .

وفى القرآن الكريم لم ترد كلمة : (فم) على هذه الصورة ، وإنما وردت فى ثلاث صيغ هى : (فاه ــ أفواهكم ــ أفواههم) مضافة أو مضافة ومجموعة ، كما نرى فيما يلى :

١ ــ « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » (٣٣) .

٢ ــ « وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم » (٣٤) .

٣ ــ « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم » (٣٥) .

٤ ــ « قد بدات البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر » (٣٦) .

٥ ــ « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون » (٣٧) .

٦ ــ « قالوا : آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن من قلوبهم » (٣٨) .

٧ ــ « يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم » (٣٩) .

---

(٣٣) سورة الرعد ، الآية ١٤ .

(٣٤) سورة النور ، الآية ١٥ .

(٣٥) سورة الأحزاب ، الآية ٤ .

(٣٦) سورة آل عمران ، الآية ١١٨ .

(٣٧) سورة آل عمران ، الآية ١٦٧ .

(٣٨) سورة المائدة ، الآية ٤١ .

(٣٩) سورة التوبة ، الآية ٨ .

٨ـ « وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم » (٤٠) .

٩ـ « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم » (٤١) .

١٠ـ « جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم » (٤٢) .

١١ـ « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً » (٤٣) .

١٢ـ « اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » (٤٤) .

١٣ـ « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره » (٤٥) .

ومن الواضح أن كلمة : (فاه) مستخدمة فى الموضع الأول استخداماً حقيقياً ، لا مجازياً ، ولا صلة لهذا الاستخدام بالنطق ألبتة ، إذ المعنى ، كما ذكر على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه : (كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده ، وهو لا يناله أبداً ، فكيف يبلغ فاه) (٤٦) .

وفى الموضع العاشر استخدمت على المعنى الحقيقى، إذ رد الكفار أيديهم فى أفواههم ، كما يفعل من يريد تمويج صوته ليسمع عن بعد بتحريك يده أمام فمه ـ وهو يرفع صوته ـ ذهاباً وإياباً ، فيتموج الصوت و يسمع ، وهو ما يدل على جهرهم بالتكذيب والشك (٤٧) .

أما المواضع الأخرى عدا الأول والعاشر فالواضح أن المعنى مرتبط بعملية النطق والكلام ، وأن هذا الكلام بالأفواه لا يكون إلا نفاقاً أو كذباً أو افتراء أو جهلاً ، أى

---

(٤٠) سورة التوبة ، الآية ٣٠ .

(٤١) سورة التوبة ، الآية ٣٢ .

(٤٢) سورة إبراهيم ، الآية ٩ .

(٤٣) سورة الكهف ، الآية ٥ .

(٤٤) سورة يس ، الآية ٦٥ .

(٤٥) سورة الصف ، الآية ٨ .

(٤٦) ابن كثير ، ٢ /٥٠٧ .

(٤٧) الظلال ، ٥ / ١٤١

الكلام بالأفواه هنا مخالف للحقيقة والحال، وهو ما يتضح جلياً فى الموضع الثانى، حيث يقول رب العزة لمن أشاعوا حديث الإفك عن السيدة عائشة: (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) من باب الجهل، وفى الموضع الثالث: (وما جعل أدعياءكم أبناءكم، ذلكم قولكم بأفواهكم) من باب الادعاء، وفى المواضع من الرابع حتى السابع من باب النفاق، وفى المواضع الثامن والتاسع والثالث عشر من باب الجدال والافتراء، وفى الموضع الحادى عشر من باب الكذب، كما هو واضح فى الآية: (كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً).

و يوم القيامة يأتى المنافقون بكذبهم وجدالهم يوم القيامة، ولكن الله يختم على تلك الأفواه الكاذبة المجادلة، كما تنص الآية فى الموضع الثانى: (اليوم نختم على أفواههم) تغلق تلك الأفواه وتخرس، ثم يستنطق الله الجوارح، يقول رب العزة: (وتكلمنا أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يعملون).

نخلص مما سبق إلى أن القرآن الكريم لم يستخدم كلمة الفم إلا مضافة، أو مضافة ومجموعة، كما استخدمها على إعراب الأسماء الستة، والقول بالأفواه لا يكون إلا ادعاء أو جهلاً أو كذباً أو افتراء، أو نفاقاً.

و ــ الأنـــف:

تشكل الأنف ممراً احتياطياً للهواء يستخدم عند إغلاق طريق الفم كما يستخدم أيضاً عند نطق الأصوات الأنفية، كما مر، و بوابة الأنف هى اللهاة التى تغلق الممر نهائياً عندما يمر الهواء من طريق الفم، أو تسمح بمروره عندما يمر من طريق الأنف، أو بمرور الجزء الأكبر منه ــ والباقى يتسرب من طريق الفم ــ كما يحدث عند نطق الأصوات الأنفية، و يتم ذلك بارتفاعها إلى سقف الحلق فتغلق الطريق إلى الأنف، أو بانخفاضها عند إغلاق طريق الفم، ليخرج الهواء كله من الأنف، وفى هذه الحالة الأخيرة إذا لم يكن طريق الفم محكم الإغلاق ــ كما فى الإخفاء

التجويف الأنفى

اللهـــاة

شكل (٤)
حركة اللهاة

والإخفاء الشفوى والإدغام الناقص ــ تسرب جزء من الهواء من الفم ليصبح الصوت أنفمياً ، كما سبق .

وإذا أخلت اللهاة بوظيفتها فلم تغلق طريق الأنف بإحكام ــ لسبب أو لآخر ــ جاءت الأصوات مخنوقة ، لأن جزءاً من الهواء يتسرب أو يخرج من طريق الأنف ، وهو عيب نطقى ــ عافانا الله منه ــ إلا أنك قد تجد هذا الخنف عند بعض الشعوب ، وفى لغاتها مثل اليهود والفرنسيين (٤٨) .

ولم تذكر: (الأنف) فى الكتاب الكريم غير مرتين فى موضع واحد ، عند الحديث عن القصاص فى قوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف » (٤٩) .

وقد عبر القرآن الكريم عن الأنف بالخرطوم فى معرض الذم ، كما جاء فى قوله تعالى : « سنسمه على الخرطوم » (٥٠) . أى سنسمه سيما على أنفه ، وعن ابن عباس : (يقاتل ــ أى الوليد بن المغيرة ــ يوم بدر فيخطم بالسيف فى القتال) (٥١) .

ز ــ الحنك :

سقف أعلى الفم (٥٢) ، وهو من أعضاء النطق الثابتة غير المتحركة فى نهايته اللهاة التى تتحكم فى طريق الهواء إلى الأنف ، كما أنها تشترك مع أقصى اللسان فى نطق القاف ، وينقسم الحنك إلى :

١ ــ أقصى الحنك ، أو الحنك اللين ، ويسمى أحياناً الطبق .
٢ ــ وسط الحنك ، أو الحنك الصلب ، و يسمى أحياناً الغار .
٣ ــ مقدم الحنك ، أو اللثة ، بما فى ذلك أصول الثنايا .

---

(٤٨) الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ، ص ٧٢ .

(٤٩) سورة المائدة ، الآية ٤٥ .

(٥٠) سورة القلم ، الآية ١٦ .

(٥١) تفسير ابن كثير ، ٤/ ٤٠٥ .

(٥٢) أساس البلاغة للزمخشرى ، مادة : (ح ن ك) .

فمقدم الحنك هو ذلك القسم من سقف الحنك الواقع خلف الأسنان العليا مباشرة، وهو محدب ومحزز، أما الخط الفاصل بينه وبين ما يليه من لحنك الصلب فهو ذلك الموضع من سقف الحنك الذى ينتهى فيه التحدب، ويبدأ التقعر، واللثة — كما هو معروف — من أعضاء النطق الثابتة.

أما بقية الحنك فهو يقسم إلى وسط الحنك أو الحنك الصلب وأقصى الحنك أو الحنك اللين، ويمكن أن ندرك الفرق بين الجزء الصلب والجزء اللين بالنظر فى المرآة، أو بلمس الحنك بواسطة الأصبع.

ودور الحنك يتمثل فى التعاون مع اللسان، كما يلى:

١ — فى نطق الحركات العربية يرتفع اللسان إلى الحنك أو ينخفض، مما ينتج عنه ضيق المسافة بينهما، أو اتساعها، فتكون الحركة ضيقة أو متسعة، كما أن أقصى اللسان أو الجزء الخلفى يمكن أن يتحرك إلى أقصى الحنك أو الجزء الخلفى منه فتكون الحركة خلفية، ويمكن أن يتحرك مقدم اللسان أو الجزء الأمامى إلى ما يقابله من الحنك، فتكون الحركة أمامية، وهكذا.

٢ — يعتمد اللسان على الحنك فتخرج الصوامت الآتية:

(أ) من أقصى اللسان ومؤخره مع أقصى الحنك مخرج الغين والخاء والكاف والواو.

(ب) من وسط اللسان أو مقدمه مع وسط الحنك مخرج الجيم والشين والياء.

جـ) ومن طرف اللسان مع اللثة مخرج الأصوات: (الزاى — الصاد — السين — الراء — النون — اللام — التاء — الطاء — الدال — الضاد).

ولم ترد كلمة: (حنك) فى القرآن الكريم، وإن ورد الفعل: (احتنك) جاء ذلك على لسان إبليس: «قال: أرأيت هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا» (٥٣). عن ابن عباس: (يقول: لأستولين على

---

(٥٣) سورة الإسراء، الآية ٦٢.

ذريته إلا قليلا) وقال مجاهد : (لأحتوين) (٥٤) وفي أساس البلاغة : (احتنك الجراد ما على الأرض أتى عليه ، واحتنك مالى : أخذه كله ، لأحتنكن ذريته) (٥٥) .

ح ــ الأسنـــان :

من أعضاء النطق الثابتة ، التى لا تتحرك إلا بالخلع حين تكون عبئاً على الجسم ، ومصدراً للآلام ، و يتمثل دورها فى شيئين :

١ ــ إنها جزء من غرفة الرنين ، الممثلة فى الفراغ الفموى ــ للذى يحتوى على اللسان والحنك واللهاة ــ إضافة إلى الأسنان ــ ولذا فإن سقوط بعض الأسنان ، و بخاصة الأمامية يؤثر بشكل ملموس على النطق يمكن أن يدركه الفرد العادى .

٢ ــ يوضع طرف اللسان بين الأسنان العليا والسفلى ، الأمامية منها لإخراج الثاء والذال والظاء ، كما تعتمد الشفة السفلى على الأسنان العليا لإخراج الفاء .

وفى القرآن الكريم لم ترد كلمة : (الأسنان) وإنما ورد المفرد : (السن) مرتين ، وفى آية القصاص : « .. والسن بالسن ، والجروح قصاص » (٥٦) .



---

(٥٤) ابن كثير، ٣/ ٤٩ .

(٥٥) مادة : (ح ن ك) .

(٥٦) سورة المائدة، الآية ٤٥ .

الفصـــل الثالـــث

العروبة والعجمة

إذا نظرنا إلى مادة (عرب) وجدنا ثلاث صيغ ، هى : (عُرُبا — عربى — الأعراب) نذكر مواضعها فى الكتاب الكريم ، ثم نحاول تحليلها لمعرفة مفهوم العروبة ، ثم نتبع ذلك بالحديث عن مفهوم العجمة ، متبعين ذات الطريقة التى استخدمت فى العروبة :

الصيغة الأولى :

« فجعلناهن أبكارا عربا أترابا » (١) وعربا مفردها عروب ، وهى المتحببة إلى زوجها (٢) ، أو التى تعربدائماً عن حبها لزوجها ، وقال صالح بن عبد الله عن عبد الله بن بريدة فى قوله تعالى : « عربا » قال : (الشكِلة (٣) بلغة أهل مكة والمغنجة (٤) بلغة أهل المدينة) ، وعن جعفربن محمد عن أبيه عن جده ، قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عربا ، قال : (كلامهن عربى) (٥) .

---

(١) سورة الواقعة ، الآية ٣٧ .

(٢) الكشاف ، ٤/ ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) انظر مادة : (ش ك ل) فى أساس البلاغة للزمخشرى .

(٤) انظر مادة : (غ ن ج) فى لسان العرب .

(٥) ابن كثير ، ٤/ ٢٩٢ .

الصيغة الثانية :

١ ـ « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » [٦] .

٢ ـ « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » [٧] .

٣ ـ « ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى » [٨] .

٤ ـ « إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون » [٩] .

٥ ـ « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ، ولا واق » [١٠] .

٦ ـ « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون ، أو يحدث لهم ذكرا » [١١] .

٧ ـ « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون » [١٢] .

٨ ـ « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعقلون » [١٣] .

٩ ـ « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها » [١٤] .

١٠ ـ « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » [١٥] .

---

(٦) سورة النحل ، الآية ١٠٣ .

(٧) سورة الشعراء ، الآيات من ١٩٢ ـ ١٩٥ .

(٨) سورة فصلت ، الآية ٤٤ .

(٩) سورة يوسف ، الآية ٢ .

(١٠) سورة الرعد ، الآية ٢٧ .

(١١) سورة طه ، الآية ١١٣ .

(١٢) سورة الزمر ، الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

(١٣) سورة فصلت ، الآية ٣ .

(١٤) سورة الشورى ، الآية ٧ .

(١٥) سورة الزخرف ، الآية ٣ .

١١ ـ « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق ، لساناً عربياً ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » (١٦).

الصيغة الثالثة :

١ ـ « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » (١٧).

٢ ـ « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم » (١٨).

٣ ـ « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ، و يتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم » (١٩).

٤ ـ « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر و يتخذ ما ينفق قربات عند الله ، وصلوات الرسول » (٢٠).

٥ ـ « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق » (٢١).

٦ ـ « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » (٢٢).

٧ ـ « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم » (٢٣).

---

(١٦) سورة الأحقاف ، الآية ١٢.

(١٧) سورة التوبة ، الآية ٩٠.

(١٨) سورة التوبة ، الآية ٩٧.

(١٩) سورة التوبة ، الآية ٩٨.

(٢٠) سورة التوبة ، الآية ٩٩.

(٢١) سورة التوبة ، الآية ١٠١.

(٢٢) سورة التوبة ، الآية ١٢٠.

(٢٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢٠.

٨ ــ « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم ، أو يسلمون » (٢٤) .

٩ ــ « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا » (٢٥) .

١٠ ــ « قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولم يدخل الإيمان فى قلوبكم » (٢٦) .

وقبل أن نناقش مفهوم العروبة والفرق بين العربى والأعرابى نشير إلى أن الأعراب فى الآيات الكريمات لا تعنى البدو ، لأن القرآن الكريم استخدم هذه الأخيرة وبعض مشتقاتها ، ولو كان المعنى واحداً لاكتفى القرآن بكلمة منها .

ومن المفيد أن يتأمل القارئ الآيات التاليات :

١ ــ « ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجداً ، وقال (٢٧) يا أبت : هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقاً ، إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى » (٢٨) .

٢ ــ « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء ، العاكف فيه والباد » (٢٩) .

٣ ــ « وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب » (٣٠) .

فالبدو فى الآية الأولى معناها البادية ، فقد كان يعقوب ــ عليه السلام ــ وأبناؤه أهل بادية وماشية ، من شاء وإبل (٣١) ، وفى الآية الثانية البادى أى النائى عن

---

(٢٤) سورة الفتح ، الآية ١٦ .

(٢٥) سورة الفتح ، الآية ١١ .

(٢٦) سورة الحجرات ، الآية ١٤ .

(٢٧) أى نبى الله يوسف ، عليه السلام .

(٢٨) سورة يوسف ، الآية ١٠٠ .

(٢٩) سورة الحج ، الآية ٢٥ .

(٣٠) سورة الأحزاب ، الآية ٢٠ .

(٣١) ابن كثير ، ٢/ ٤٩١ .

البيت الحرام البعيد الداو عنه فى مقابل العاكف أى المقيم (٣٢) وفى الآية معنى : (بادون) غير حاضر ين معكم فى المدينة بل فى البادية (٣٣) ، وهذه الآية الأخيرة بشكل خاص لن يتضح معناها تماماً إلا إذا عرفنا المقصود بالأعراب ، كما سنرى فيما بعد .

وأول ما يجب أن يقال فى هذا الصدد ، بل و يؤكد عليه هو أن البدو غير الأعراب ، ففى الآية الأخيرة ــ كما رأينا ــ يقول القرآن الكريم : (بادون فى الأعراب) ولو كان واحداً لاكتفى بواحد منهما ــ كما أشرنا ــ إذن فالبدو هم سكان البادية ، رعاة الشاة والإبل ، والماشية بشكل عام ، فى مقابل الحضر المستقر ين فى المدن والحواضر والأمصار.

نعود إلى : (الأعراب) لنرى أن هؤلاء القوم لم يوصفوا بصفة طيبة على الإطلاق ، فهم :

ــ منافقــــون .

ــ أشد كفراً ونفاقاً .

ــ يتخلفون عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ و يقعدون عن نصرته ، معتذر ين عن الحرب معه بانشغالهم بأموالهم وأهليهم .

وأخيراً ينص القرآن الكريم على أن منهم من يتخذ ما ينفق مغرماً ، و يتربص بالمسلمين الدوائر ... إلخ ، وهذا ذم بلا شك ، أما فى الآية التى تلتها والتى أشارت إلى أن من هؤلاء الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ... إلخ ، فهى إلى الذم أقرب ، فإذا قلنا : إن هذا البلد فيه رجال مخلصون ، فهذا يشير إلى أن الأصل غير ذلك ، ولا سيما أن الأعراب ما مدحوا إلا فى هذا الموضع ، فإن رب العزة يشير إلى أن الأصل فى هؤلاء الناس هو الكفر والنفاق ، و برغم هذا فقد تجد منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر، و يتخذ ما ينفق قربات عند الله ، وهكذا .

---

(٣٢) السابق ، ٣ / ٢١٤ .

(٣٣) السابق ، ٣ / ٢٧٤ .

وقد نال الأعراب ما سبق من الذم ونعتهم بالكفر والنفاق لأن من أسلم منهم اتخذ موقفاً سلبياً تجاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا هم هاجروا معه، كما فعل المهاجرون، ولا هم آووا ونصروا، كما فعل الأنصار، ولذا كانت طوائف المسلمين (٣٤) على عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يلي:

ـ المهاجـــرون.
ـ الأنصـــار.
ـ الأعـــراب.

وفي هذه الآية الكريمة توضيح لما سبق: «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير» (٣٥).

فأما النوعان الأولان ـ المهاجرون والأنصار ـ فأمرهما واضح، وشأنهما جلي، أما النوع الثالث، من آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا، فيقول عنهم ابن كثير في معرض تفسيره للآية السابقة: (وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال على عدو لهم فانصروهم .. وهذا مروى عن ابن عباس) (٣٦).

وعن يزيد بن الخصيب الأسلمي قال: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا بعث أميراً على سرية أو جيشاً أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم

(٣٤) حد الإسلام وحقيقة الإيمان، تأليف عبد المجيد الشاذلي، انظر ص ٥٠٦، وما بعدها.

(٣٥) سورة الأنفال، الآية ٧٢.

(٣٦) تفسير ابن كثير، ٢/ ٣٢٩.

أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله ، الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين) (٣٧) .

ولقد وجدنا من المفيد الاستئناس بما جاء فى لسان العرب (٣٨) ، فوجدنا الآتى :

١ ـ ضرورة التفرقة بين العربى والعرب وبين الأعرابى والأعراب .

٢ ـ العربى من نزل بلاد الريف ، واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ، ممن ينتمى إلى العرب ، فى حين أن الأعرابى هو البدوى ذو النجعة والانتواء وارتياد الكلأ ، وتتبع مساقط الغيث ، سواء أكان من العرب أو من مواليهم ، فمن نزل البادية ، أو جاور البادين ، وظعن بظعنهم ، وانتوى بانتوائهم فهو أعرابى .

٣ ـ كان الأعرابى إذا قيل له : (يا عربى) فرح بذلك وهش له ، والعربى إذا قيل له : (يا أعرابى) غضب له .

٤ ـ قول الله ــ تعالى : « قالت الأعراب : آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا .. » فهؤلاء قوم من بوادى العرب قدموا على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ المدينة طمعاً فى الصدقات ، لا رغبة فى الإسلام ، فسماهم الله الأعراب ، ومثلهم الذين ذكرهم الله فى سورة التوبة : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً » .

٥ ـ لا يجوز أن يقال للمهاجرين ــ وكذا الأنصار ــ أعراب ، إنما هم عرب ، لأنهم استوطنوا القرى العربية ، وسكنوا المدن ، سواء منهم الناشئ بالبدو ، ثم استوطن القرى ، والناشئ بمكة ، ثم هاجر إلى المدينة .

٦ ـ إن لحقت طائفة من المهاجرين ــ وكذا الأنصار ــ بأهل البدو بعد الهجرة قيل تعربوا ، أى صاروا أعراباً ، وهو من الكبائر ، بل كان من رجع بعد الهجرة إلى موضعه من غير عذر عُدَّ كالمرتد .

وبعد ما سبق نستطيع القول بأن كلمة بدوى ــ وجمعها بدو ــ كانت تستخدم للإشارة فقط إلى ساكن البادية ، ولكن كلمة أعرابى ــ وجمعها أعراب ــ كانت تفيد

---

(٣٧) ابن كثير ، ٢ / ٣٢٩ .

(٣٨) مادة (ع ر ب) .

المعنى السابق إضافة إلى الذم والهجاء ، لغلظة هؤلاء الأعراب أو شدة جفائهم وخشونتهم ، و بعدهم عن مناطق الحضر والاستقرار والعمران ، حتى إن من أسلم منهم كان يبقى فى باديته بعيداً عن النور المحمدى والهدى الإلهى ومجتمع الصحابة الفضلاء ، مما كان يحرمه من خير عظيم وصحبة لسيد البشر وأصحابه النجوم ، وجهاد معهم ، ولم يكن يحضر إلى المدينة من الأعراب إلا طمعاً فى غنيمة أو استسلاماً ظاهرياً ، نفاقاً ورياء ، ولذا وجدنا القرآن الكريم لا يستخدم كلمة : (الأعراب) إلا فى معرض الذم ، فى حين أنه استخدم : (بدو ــ باد ــ بادون) للدلالة على النسبة إلى البادية فقط ، دون قصد المدح أو الذم.

و يبدو لى أن كلمة أعرابى فى البداية لم تكن تعنى إلا الانتساب إلى البادية فقط ، شأنها فى ذلك شأن بدوى و بدو ، ولكنها بمرور الوقت أخذت ظلالاً من القدح والذم ، وهذا ما نجده فى كثير من الكلمات الدالة على الانتساب إلى مكان بعينه أو بلد بعينه ، دون مدح أو قدح ، انظر مثلاً إلى الكلمات : (ريفى ــ صعيدى ــ منوفى ــ شرقاوى ــ دمياطى) إنها لم تكن تعنى سوى النسبة إلى : (الريف ــ صعيد مصر ــ المنوفية ــ الشرقية ــ دمياط) ولكنها تحولت إلى ذم وهجاء فى كثير من السياقات (٣٩) ، وإلى مدح فى سياقات أخرى .

وفى نهاية الحديث عن الأعراب والفرق بينهم و بين العرب نقول : كأن العرب من شيمهم الصدق والصراحة والوضوح ، واتخاذ موقف واضح تجاه الأحداث والأشخاص ، معهم أو عليهم ، والأعراب على العكس من ذلك منافقون مخادعون ، لا صراحة ولا وضوح ، ولذا بقوا فى بواديهم بعد إسلامهم ، واقفين من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصحبه موقفاً سلبياً ، متخلفين عن الجهاد معه ، ومجالدة أعدائه ، ولهذا كله دمغهم القرآن الكريم ووصمهم بما سبق من الكفر والنفاق ... إلخ ، فكأن هؤلاء القوم ليسوا عرباً ، وإنما هم أشباه العرب ، يحسبون عليهم ، وليسوا منهم فى شيء.

---

(٣٩) انظر إلى هذا السائق السخيف الذى كتب على سيارته عبارة : (احذر السائق صعيدى) راجع الأخبار القاهرية بتاريخ ٢١/٣/١٩٨٤ م .

جاء في اللسان : (والذى لا يفرق بين العرب والأعراب والعربى والأعراب ربما تحامل على العرب بما تأوله فى هذه الآية ــ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ــ وهولا يميز بين العرب والأعراب) .

وفى النهاية هل لنا أن نتساءل بحسن نية ، ودون التعريض بأحد : هل نحن الآن عرب أم أعراب ، هل ننسب أنفسنا إلى الأولين ، أم إلى الآخرين ؟ يبدو أننا ــ معشر العرب ــ مازلنا كما كنا على عهد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ نعانى ممن ينتسب إلينا شكلاً ولساناً و يفاصلنا موضوعاً وسريرة وسلوكاً ، هؤلاء القوم وأمثالهم ليسوا عرباً ، وليسوا منا ، ولسنا منهم ، وإن نسبوا أنفسهم إلينا ، بل هم أحياناً لا يرون وصف العرب إلا لهم هم ، نقول هؤلاء أعراب ، ومتشبهون بالعرب ، متعلقون بأذيالهم ، وليسوا عرباً ألبتة .

والآن بعد أن انتهى حديث الأعراب أو كاد نبدأ الحديث عن العرب فنقول : لقد جاءت كلمة : (عربى) فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة ، كما رأينا فى الآيات ، وهى كلها تتحدث عن الكتاب الكريم ، تأمل : (وهذا لسان عربى مبين ــ بلسان عربى مبين ــ أأعجمى وعربى ــ قرآناً عربياً ــ أنزلناه حكماً عربياً ــ لساناً عربياً) أى أن هذا القرآن نزل بلسان عربى واضح فصيح .

وهذا يعني أن العروبة هى عروبة لسان فقط ، وليست عروبة جنس أو عنصر ، فاسم العرب فى الأصل كان اسماً لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف (٤٠) :

أولها : أن لسانهم كان عربياً .

الثانى : أنهم كانوا من أولاد العرب .

الثالث : أن مساكنهم كانت أرض العرب ، وهى جزيرة العرب ، وفى هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله .

فلما جاء الإسلام ، وفتحت الأمصار سارت راية العربية جنباً إلى جنب راية الدين الحنيف ، فانطلقت العربية إلى البلاد والأمصار حتى استقرت أوتادها فى

---

(٤٠) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ، ص ١٤٩ .

العراق والشام ومصر والسودان ـ فى معظمه ـ والمغرب العربى ، وبقيت على ما هى عليه إلى الآن (٤١).

ومن ثم كان لابد من معيار آخر غير المعيار الثلاثى ، أو بمعنى آخر كان لابد من إسقاط الشرطين الثانى والثالث والاكتفاء بالأول فقط ، أى عروبة اللسان ، وهذا ما تؤكده الأحاديث الشريفة ، منها : ـ عن أبى هريرة ـ يرفعه ـ قال : (من تكلم العربية فهو عربى) (٤٢) ـ وإن العربية ليست لأحدكم بأب ، ولا أم ، إنما هى لسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى (٤٣) .

وعليه فإن من أقام بأرض العرب أو كان من نسل العرب ، ولكن لسانه غير عربى لا يعتبر من العرب على الإطلاق ، والعكس صحيح تماماً ، فإن عرب اليوم انحدر كثير منهم من أصول غير عربية ، وكثير منهم لم يسكن الجزيرة العربية ، ومع هذا فهم عرب بلا شك .

ولكن أية عربية نقصد ، الفصحى أم اللهجات الدارجات ؟ نقول : العربية بمستويها اللهجى والفصيح ، إذ اللهجات ـ وإن تعددت ـ جزء لا يتجزأ من لساننا العربى ، ولا يمكن إخراجها من هذا اللسان ، وعدم الاعتداد بها .

والعربية ليست بدعاً من اللغات فى هذا الشأن ، فكل لغات العالم بها لهجات ـ قلت أو كثرت ـ مع اللغة المشتركة ، وإن اختلفت العربية فى كثرة لهجاتها واتساع الشقة بينها ، ثم اختلافها البيّن الواضح عن الفصحى ، وهذه مرده اتساع المساحة الزمانية والمكانية لهذه اللغة ، فضلاً عن التقسيم والتجزئة المفروضين على الشعب العربى .

إذن فمن تكلم بالعربية ، الفصحى ، أو إحدى اللهجات فهو عربى ، ومعنى يتكلم بالعربية أن تكون بالنسبة له : (اللغة الأم) التى تستخدم ـ دون غيرها ـ فى

---

(٤١) وكانت العربية غالبة فى فارس والأندلس وفلسطين ، ثم تراجعت بعد غلبة الفارسية فى القرن الثالث وفقد الأندلس فى القرن التاسع ، واحتلال فلسطين قبيل منتصف القرن الحالى .

(٤٢) السابق ، ص ١٥١ .

(٤٣) السابق ، ص ١٥٢ .

جميع مناحي الحياة، كما نفعل نحن فى مصر أو فى سوريا الشقيقة أو فى ليبيا مثلاً، أما من يقيم فى تلك الأقطار ولا يتكلم بالعربية فليس بعربى، وإن أقام فيها أجداده وأسلافه، مثل الأكراد والبربر مثلاً، فهؤلاء الإخوة الكرام إن حافظوا على الكردية والبربرية فهم ينسبون إلى الشعب الكردى، أو إلى البربر، وليس إلى العرب، وإن عاشوا بين ظهرانيهم مئات السنوات، وهذا الأمر خارج عن نطاق المدح أو القدح، وإنما هو تقرير لحقائق الأمور من وجهة النظر اللغوية.

هذا عن العروبة فماذا عن العجمة؟ أول ما ألاحظه أن ما ورد فى القرآن — مفرداً أو مجموعاً — كان مهموزاً أوله، أى أعجمى فى المفرد، و: (أعجمين) فى صيغة الجمع، تأمل الآيات:

١ ـ «ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى، وهذا لسان عربى مبين»(٤٤).

٢ ـ «ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا: لولا فصلت آياته، أأعجمى وعربى»(٤٥).

٣ ـ «ولو نزلناه على بعض الأعجمين، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين»(٤٦).

فهل نستطيع القول بفرق بين أعجمى وأعجمين وبين عجمى وعجم، وما هذا الفارق؟ هذا ما يتضح فيما يلى:

نبدأ بتفسير الآيات السابقات:

١ — ادعى مشركو مكة أن غلاماً أعجمياً كان يعلم النبى — صلى الله عليه وسلم — القرآن، فرد الله عليهم بأن هذا الذى تدعون أنه يعلم الرسول أعجمى اللسان، غير مبين، فى حين أن القرآن عربى واضح، ذو بيان وفصاحة، رداً لقولهم، وإبطالاً لطعنهم(٤٧).

وقد فصل الله هذا الزعم الباطل المردود فى قوله تعالى: «وقال الذين كفروا: إن هذا إلا إفك افتراه، وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلماً وزوراً، وقالوا: أساطير

---

(٤٤) سورة النحل، الآية ١٠٣.

(٤٥) سورة فصلت، الآية ٤٤.

(٤٦) سورة الشعراء، الآية ١٩٨.

(٤٧) الكشاف، ٢/٣٤٤.

الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيماً » (٤٨) .

٢ ــ كان بعض الكفار ــ لشدة تعنتهم ــ يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ، فرد عليهم : لو كان القرآن كما يقترحون لما تركوا الاعتراض والتعنت ، وقالوا : (لولا فصلت آياته) أى بينت ولخصت بلسان نفقهه (أأعجمى وعربى) أقرآن أعجمى ورسول عربى (٤٩) .

والأعجمى الذى لا يفصح ، ولا يفهم كلامه ، من أى جنس كان و والعجمى منسوب إلى أمة العجم (٥٠) .

٣ ــ لقد رأى المشركون بعض الأعجمين يقرأ فى الكتب القديمة و ينظر فيها ، يعرف التوراة والإنجيل فاقترح هؤلاء المشركون اقتراحاً عجباً ، لقد رأوا أن الأجدر بالوحى واحد من الأعجميين الذين يقرأون و يكتبون ، وهم على اطلاع وعلم بما فى الكتب السابقة ، فرد الله عليهم : (ولو نزلناه على بعض) الأعاجم الذى لا يحسن العربية ، فضلاً أن يقدر على نظم مثله : (فقرأه عليهم) هكذا فصيحاً معجزاً متحدى به لكفروا به ، ولتمحلوا لجحودهم عذراً ، ولسموه سحراً (٥١) .

والأعجم الذى لا يفصح ، وفى لسانه عجمة واستعجام ، والأعجمى مثله ، إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة توكيد ، وقرأ الحسن البصرى : (الأعجميين) بياءين ، ولما كان من يتكلم بلسان غير لسان العرب لا يفقهون كلامه قالوا له : أعجم وأعجمى ، شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين ، وقالوا لكل ذى صوت من الطير : أعجم (٥٢) .

ونثنى باقتباس ما جاء فى لسان العرب (٥٣) عن الفرق بين أعجمى و بين عجمى ، كما يلى :

١ ــ العُجْم والعَجَم خلاف العُرْب والعَرَب ، و يقال : عجمى وجمعه عجم ،

---

(٤٨) سورة الفرقان ، الآيات من ٤ ــ ٦ .

(٤٩) الكشاف ، ٣ / ٣٩٣ .

(٥٠) السابق .

(٥١) السابق ، ٣ / ١٢٧ .

(٥٢) الكشاف ، ٣ / ١٢٧ .

(٥٣) انظر مادة : (ع ج م) .

مقابل : عربى وجمعه عرب ــ والعجم غير العرب ــ وذلك مثل : نبطى ونبط ــ تركى وترك ــ فارسى وفرس .

٢ ــ رجل أعجم وأعجمى إذا كان فى لسانه عجمة ، وإن أفصح بالعجمية ، وكلام أعجم وأعجمى بين العجمة ، وفى التنزيل : (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ..) وجمعه بالواو والنون ، تقول : أعجمى وأعجمون ، وعليه قوله تعالى : (ولو نزلناه على بعض الأعجمين ..) .

٣ ــ الأعجم الذى لا يفصح ، ولا يبين ــ وإن كان عربى النسب ــ والأنثى عجماء ، وكذلك الأعجمى .

نخلص من كل ما سبق إلى ما يلى :

١ ــ العَجَم خلاف العَرَب ، والعبرة هنا باللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى ــ وإن لم يكن عربى النسب ــ ومن تكلم بغيرها فهو عجمى ــ وإن كان عربى النسب ــ أو عاش بين ظهرانى العرب ، كما يشترط فى كليهما أن تكون العربية أو العجمية هى اللغة الأم التى تستخدم وحدها فى جميع مناحى الحياة ، ولا تُترك إلى غيرها إلا لضرورة أو حاجة ملحة .

٢ ــ إن القرآن استخدم الكلمتين : (أعجمى ــ أعجمين) وكان المراد الإشارة إلى نوع من الموالى غير العرب ، كانوا يعيشون فى الجزيرة العربية ، لا يكادون يفهمون أو يفهمون غيرهم ما يقولون ، لا يستطيعون أن يتكلموا بالعربية بشكل صحيح ، فضلاً عن أن يكون أحدهم فصيحاً بليغاً ، كما هو شأن القرآن الكريم ، الذى نزل بلسان عربى مبين .

هؤلاء القوم الأعاجم يشبهون إلى حد كبير بعض الأجانب (الخواجات) الذين كانوا يعيشون فى مصر مثلاً ، وكان أحدهم إذا تكلم العربية لم يكد يفصح لسانه أو يبين ، فضلاً عن لكنة أجنبية واضحة ، تتضح فيها بصمات لغته الأم ، فهل يا ترى إذا أراد المصريون أن ينصبوا من بينهم حاكماً عليهم ، فهل من الممكن أن يختاروا واحداً من هؤلاء الأجانب ؟ هذا أمر غير معقول ، فإذا أراد رب العزة أن يختار من بين العرب رسولاً فهل يختار واحداً من هؤلاء الأعاجم الذين لا يحسنون لغة العرب ولا ينطقونها إلا بشكل خاطئ ملحون ؟ إن هذا ما لا سبيل إليه .

والجدير ذكره أن : (أعجمي ــ أعجمى) لا تعنى فئة من الناس ، أو جماعة ، تسمهم بشيء ، أو تصمهم بوصم ، وإنما هي وصف للسان ليس إلا ، فالكلمتان تعنى عدم القدرة على الإفصاح والإبانة ، عربياً كان الموسوم أو غير عربى ، برغم أن القرآن الكريم كان يشير إلى بعض الموالى غير العرب الذين اتهمهم المشركون بأنهم يُمْلون القرآن على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بكرة وأصيلاً .

إذن فالقضية قضية لغة فى الألفاظ الآتية كلها : (عربى ــ عجمى ــ أعجم ــ أعجمى) لا قضية جنس ولا عنصر ، ولا لون ، كما سبق ، وهذا أمر جدير بالنظر والاعتبار .

وقد لاحظت شيئاً هاماً تجب الإشارة إليه ، وهو أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما وصف قط بأنه عربى إلا فى قوله تعالى : (أأعجمى وعربى) برغم أن المقصود عروبة اللسان ، بل إن بعض المفسرين يرى أن : (عربى) هنا تصف المرسل إليهم النبوة ، ولا تصف صاحب الرسالة ، وهذا ما يحتاج إلى بعض التأمل .

لقد وصف النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مرتين بأنه أمى :

١ ــ « الذين يتبعون الرسول ، النبى الأمى » (٥٤) .
٢ ــ « فآمنوا بالله ورسوله ، النبى الأمى » (٥٥) .

والملاحظ أن الوصف هنا صريح ، لا ليس فيه : (النبى الأمى) أى لا يحسن الكتابة ، أو هو من قوم أميين ، كما جاء فى آيات أخر ، وقبل أن نذكر مَنْ هم هؤلاء الأميون نثبت هذى الآيات :

١ - « هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم » (٥٦) .
٢ - « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم (٥٧) » .
٣ - « ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل » (٥٨) .
٤ - « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى »

---

(٥٤) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .
(٥٥) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ .
(٥٦) سورة الجمعه ، الآية ٢ .
(٥٧) سورة ال عمران ، الآية ٢٠ .
(٥٨) سورة آل عمران ، الآية ٧٥ ، وتشير الآية إلى قول اليهود : ليس فى ديننا ــ أى اليهودية ــ من حرج فى أكل أموال العرب !!

فالأمي المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه، أى لا يكتب، لأن الكتابة مكتسبة، فكأنه نسب إلى ما يولد عليه، أى على ما ولدته أمه عليه، وقيل للعرب أميون لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة وقليلة، أو قل نادرة.

فالآيات هنا تتحدث عن نوعين من الناس، الأميون، وهم العرب الذين بعث فيهم النبى الخاتم ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنوع الثانى الكتابيون من اليهود والنصارى، أو كما عبر القرآن الكريم الذين أوتوا الكتاب، أى التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من الكتب السماوية (٥٩).

وإذا كان الغالب على اليهود أنهم قوم يحسنون الكتابة و يعلمون ما فى الكتاب ـ أى التوراة ـ فإنك تجد فيهم بعض الأميين (٦٠) الذين لا يعلمون شيئاً عن كتابهم المنزل على موسى ـ عليه السلام ـ وإنما هى أمانى كذاب، يتمنون على الله ما ليس لهم، ولم لا وهم يعتبرون أنفسهم من أهل الكتاب، وان لم يعرفوا عن هذا الكتاب شيئاً، فضلاً عن العمل به.

وكأنما يشير القرآن الكريم إلى أن القضية ليست قضية انتساب إلى أمة أو شعب، وإنما الأساس والأهم العلم والعمل، فإذا عاش جاحد كافر بين أمة صالحة فإنه لن ينسب إليهم ولو كان منتمياً إليهم دماً ونسباً وقرابة، وكذلك العابد القانت لو عاش فى أمة عاصية كافرة فإن هذا لا ينقص من أجره شيئاً «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» (٦١) والأمثلة على هذا كثيرة، ابن نوح، وامرأته، امرأة لوط، امرأة فرعون، وغير ذلك من الأمثلة وردت فى القرآن الكريم.

فأما أن العرب كانوا قوماً أميين فهو ما يشير إليه الحديث الشريف: (إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب) (٦٢) وأما اتصاف النبى الخاتم بصفة الأمية فقد كان هذا ثابتا فى الكتب السابقة، كما هو ثابت أيضاً فى غير الآيات الأربع التى ذكرناها، بل و بصورة أشد وضوحاً، أو بمعنى آخر: هى تفسير للفظ: (أمى) ذلك

---

(٥٩) لسان العرب، مادة: (أ م م).

(٦٠) وهو ما نجده فى الآية الرابعة.

(٦١) سورة المائدة، الآية ١٠٥.

(٦٢) تفسير ابن كثير، ١/ ٣٥٤.

هو قوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلون » (٦٣) .

هذا خطاب من رب العزة إلى النبي الأمي : لقد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً ، لا تقرأ كتاباً ، ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك ، ومن غيرهم ، يعرف أنك رجل أمي ، لا تقرأ ، ولا تكتب ، وهكذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لا يحسن الكتابة ، ولا يخط سطراً ، ولا حرفاً بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الملوك والكبراء (٦٤) .

وما أورده بعض العلماء من أنه — صلى الله عليه وسلم — لم يمت حتى تعلم الكتابة فضعيف ، لا أصل له ، وأما ما روى من كتابته يوم الحديبية فيظهر أنه كتب ذلك على وجه المعجزة (٦٥) .

ولو كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يحسن الكتابة لارتاب بعض الجهلة من الناس ، فيقول : إنما تعلم هذا من كُتُب قبله مأثورة عن الأنبياء ، بل هم قالوها مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة (٦٦) : « وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً » (٦٧) .

نعم ، لو بعث محمد — صلى الله عليه وسلم — في أمة تقرأ وتكتب ، وتؤلف ، وتعرف الكتب وتسطيرها لكان هذا الكتاب الذي جاء به النبي مجرد كتاب من تلك الكتب التي تنتجها هذه الأمة ، ولو كان النبي نفسه غير أمي ، يحسن الكتابة ، ويجيد القراءة في كتب السالفين والخالفين ، والأولين والآخرين لكان لبعض هؤلاء المبطلين شبهة في أنه ربما تأثر بما يقرأ من هاتيك الكتب والسطور ولكنه كان نبياً أمياً ، من أمة لا تقرأ ولا تكتب لاكتمال المعجزة ، و بلاغة الحجة على العباد والخلق .

---

(٦٣) سورة العنكبوت ، الآية ٤٨ .

(٦٤) ابن كثير ، ٣/٤١٧ .

(٦٥) السابق ، وقد عالج أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين قضية معرفة الرسول بالكتابة والقراءة ، انظر تاريخ القرآن ، ص ٤٧ وما بعدها .

(٦٦) ابن كثير ، ٣/٤١٧ .

(٦٧) سورة الفرقان ، الآية ٥ .

إن هذه الأمية ليست عيباً في العرب ، ولا قدحاً فيهم ، وإنما منقبة ومدح ، إن هذه الأمية قد عصمتهم من تلك الخرافات والأباطيل التي حشيت بها الكتب السابقة ، فقد كانوا كالصفحة البيضاء يخط فيها الكاتب ما يشاء ، دون عناء أو رهق أو تعب ، ولو كان قد ترسخ في أذهانهم بعض هذه الأباطيل — كما كان عند اليهود والنصارى — لما استقاموا لهذه الدعوة بهذا الشكل ، وفي تلك المدة الوجيزة ، ولبقوا على عتو واستكبار ، كما فعل كثير من أهل الكتاب ، الذين كانوا يقرأون و يكتبون ، لكنهم لم ينتفعوا بشيء من ذلك ، بل كانوا : (كالحمار يحمل أسفاراً) (٦٨) ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن أمية العرب كانت أهم الأسباب التي جعلت منهم النبي الخاتم ، ففي قوله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم » دلالة على أن رب العزة قد اختار من العرب بشكل خاص نبيه الخاتم لأنهم كانوا قوماً أميين ، على فطرتهم ، لم يلوثوا بكتاب قرأوه ، أو اطلعوا عليه هنا أو هناك .

وكثيراً ما نرى في زماننا هذا أن الإنسان البدائي الذي لم يتأثر برأي ولا كتاب أقرب إلى الاقتناع بدين الفطرة ممن عاش على ظنون وأوهام ، معتبراً نفسه على دين ، ومن ناحية أخرى فإننا قد نجد بعض مثقفينا ، ممن نالوا الشهادات العلى يثرثرون كثيراً ، ولعلك لا تفهم مما يقولون شيئاً ، في حين أن المنطق العام صعب جداً عليهم ، ومن الصعب عليهم أن يرتبوا النتيجة على سببها ، أو أسبابها ، وما ذاك إلا بسبب ما حشوا به عقولهم من فكر معوجة لا تستقيم ، قرأوها فيما قدم إليهم من كتب أكثرها ضار مفسد ، والقليل نفعه لا يسمن ، ولا يغني من جوع .

وعلى العكس مما سبق قد نجد رجلاً أمياً — أو امرأة — لم يقرأ في حياته سطراً ولا حرفاً ، ولكنه يفهم المنطق العام ، يرتب النتيجة على السبب أو الأسباب ، ثم تجده ناجحاً في الحياة سعيداً بها ، في حين أن من نال الشهادات العلى يُرثى لحاله ، وحال من هم على شاكلته .

ولا نقصد مما سبق أن نحط من شأن القراءة والكتابة أو نرفع من شأن الأمية ، بل نقصد التأكيد أنه خير للإنسان أن يكون أمياً من أن يقرأ ما لا ينفعه ، بل يضره ، إن

---

(٦٨) سورة الجمعة ، الآية ٥ .

الإنسان قد يصبر على الجوع ، لكنه لا يُقدم على أكل السموم التى تودى بحياته لكى يسكت آلام جوعه .

نعود إلى موضوع العروبة والعجمة فنقول : إذا كان مدار الأمر فى كليهما اللسان ، ليس العنصر ولا الدم فهل ينفى هذا واقع الخلق ، من اختلاف الألوان والألسنة ، ومن توزع الناس إلى شعوب متباينة ، وقبائل متمايزة ؟

لقد أقر القرآن الكريم هذا الواقع الملموس ، فجعل اختلاف الألوان والألسنة آية من آياته الدالة على قدرته العظيمة ، وقرن هذه الآية بخلق السماوات والأرض ، قال تعالى : « ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين » (٦٩) .

بل إن القرآن الكريم خاطب الخلق جميعاً قائلاً : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير» (٧٠) فأصل البشرية جميعاً ، ذكراً وأنثى ، هما آدم وحواء ، ثم إن الله أراد الناس ــ برغم هذا الأصل ــ أن يكونوا منقسمين إلى شعوب ــ أى العجم ــ وقبائل ــ أى العرب ــ بهدف التعارف (٧١) والتمايز ، أى لكى يتمكن الناسُ من معرفة بعضهم بعضاً ، فهذا تركى وهذا فارسى ، وهذا ألمانى .... إلخ ، وذاك هاشمى أو تميمى أو نجدى ... إلخ ، وهكذا يتمكن كل إنسان من معرفة نسبه ، ومعرفة أبيه وجده وعائلته ، ثم القبيلة أو الشعب ، ولا فرق بين الجميع إلا بالتقوى .



(٦٩) سورة الروم ، الآية ٢٢ .

(٧٠) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

(٧١) تفسير ابن كثير ، ٣/٢١٧ .

الفصل الرابع

الحرف والرمز والصوت

وقعت كلمتا : (حرف ـ رمز) مرة واحدة فى القرآن الكريم ، أما : (صوت) وجمعها : (أصوات) فقد جاءتا فى ثمانية مواضع ، كما سنفصل فيما يلى :

أولاً ـ الحرف :

وجاء فى قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف . فإن أصابه خير اطمأن به . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسران المبين »(١) ولم تأت كلمة : (حـرف) فى غير هذا الموضع .

(على حرف) على طرف ، ومنه حرف الجبل أى طرفه ، أى دخل فى الدين على طرف فإن رأى ما يحبه استقر، وإلا انشمر، عن ابن عباس قال : (كان ناس من الأعراب يأتون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيُسْلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدوبة ، وعام قحط ، وولاد سوء قالوا : ما فى ديننا هذا خير، فأنزل الله على نبيه : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ... » (٢) .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : (هو المنافق ، إن صلحت له دنياه أقام

---

(١) سورة الحج ، الآية ١١ .

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/٢٠٩ .

على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب ، فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه ، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ، ورجع إلى الكفر)(٣) .

ويجمع الحرف على أحرف كفَلْس وأفْلُس ، وهو جمع قلة ، كما يجمع على حروف وحِرَفَة(٤) ، والجمع الأخير لا يشيع استخدامه ، على عكس أحرف وحروف ، وتدور المعانى المعجمية لكلمة الحرف حول الطرف والحافة والحد والناحية والجهة والطريقة ، وقد رأيناه فى الآية الكريمة بمعنى الوجه ، أى من الناس من يعبد الله على وجه واحد فقط ، هو وجه النعمة والخير دون سواه(٥) .

ومن هذه المعانى المعجمية تفرعت المعانى الاصطلاحية الآتية :

أ ـ الحروف والحركات :

قال ابن الجزرى : (إنما سمى كل واحد من التسعة والعشرين حرفاً ـ على اختلاف ألفاظها ـ لأنه طرف للكلمة فى أولها ، وفى آخرها ، وطرف كل شىء حرفه ، من أوله وآخره ، ولذا كان أقل عدد أصول حروف الأسماء والأفعال ثلاثة ، طرفان ووسط)(٦) .

ومعنى هذا أن الحروف هى الصوات العربية مع الحركات الطويلة ، أو بعبارة أخرى هى الفونيمات ـ الوحدات الأصواتية ـ باستثناء الحركات القصيرة والسكون ، التى سنتحدث عنها بشىء من التفصيل فيما بعد ، ولعل علماء العربية القدماء قد فرقوا بين الحروف وبين الحركات ـ أى القصيرة ـ والسكون لأسباب منها :

أولاً : نظروا إلى الرمز الكتابى فوجدوا لكل حرف رمزاً ، فى حين أن الحركات القصيرة لم يكن لها رمز إلا بعد الشكل الذى ابتدعه أبو الأسود الدؤلى ، ثم طوره على

---

(٣) تفسير ابن كثير، ٣/٢٠٩.

(٤) اللسان، مادة: (ح رف).

(٥) قراءة الأربعة الشواذ، ص١٨، ١٩.

(٦) التمهيد فى علم التجويد لابن الجزرى، ص ٧٥.

الشكل الحالى ـَـ ـُـ الخليل بن أحمد(٧)، بل إن هذه ألحقت برموز الحروف فوضعت فوقها أو تحتها، دون أن تستقل بنفسها على السطر، كما هو شأن الحروف جميعاً.

ثانياً: لاحظ القدماء ـ وهم على حق تماماً ـ أن الكلمة العربية تبدأ بحرف وتنتهى بحرف، ولا تبدأ بحركة ـ أى قصيرة ـ ألبتة، كذلك لا تنتهى بحركة ـ قصيرة ـ فلا وقوف على متحرك، وإنما الوقف على الصامت الساكن، أو حركة طويلة، أى حرف علة.

ثالثاً: رأى علماء العربية أن الحركة ـ أى القصيرة ـ مقابلة للسكون، فالكلمة قد تبنى على الضم أو الفتح أو الكسر أو تبنى على السكون، مثل: (حيثُ ـ أنتَ ـ أنتِ ـ كنْ) مع ملاحظة أن علماء العربية أطلقوا السكون على الصامت غير المتحرك وعلى الحركات الطويلة (حروف العلة).

إذن فتسمية الحرف هنا جاءت لأنه يَحُدُّ الكلمة من جانبيها من أولها وآخرها، على عكس الحركة القصيرة التى تأتى دائماً بين الأول والآخر، ولا تبدأ بها كلمة عربية ألبتة، ولا تنتهى، كما أشرنا.

أما التسعة والعشرون حرفاً التى أشار إليها ابن الجزرى فهى: (أ ـ ب ـ ت ـ ث ـ ج ـ ح ـ خ ـ د ـ ذ ـ ر ـ ز ـ س ـ ش ـ ص ـ ض ـ ط ـ ظ ـ ع ـ غ ـ ف ـ ق ـ ك ـ ل ـ م ـ ن ـ لا ـ و ـ ى) مع ملاحظة أنه اعتبر الواو والياء هنا رمزين لواو المد وياء المد فى مثل: (روح ـ ريح) والواو والياء فى مثل: (وعد ـ يعد) كما فرق بين الهمزة: (أ) وبين ألف المد التى وضعها مع اللام فى: (لا) التى يخطئ البعض فينطقها: (لام ألف) لأن هذه الألف هى الهمزة التى بدأنا بها، أما هذه الأخيرة فهى ألف المد أو الفتحة الطويلة.

وقد قسمت الحروف إلى أقسام عديدة يهمنا أن نذكر منها التفرقة بين الحروف ـ الصحيحة ـ وبين الحروف المعتلة أو حروف المد أو اللين، فما المقصود بكل ما سبق؟.

---

(٧) علم اللغة العام (الأصوات) للدكتور كمال بشر، ص ١٨٨.

الحروف الصحيحة هى الصوامت العربية ، أما حروف العلة فهى الحركات الطويلة : (ألف المد ـ ياء المد ـ واو المد) وأضاف بعضهم إليها الهمزة ، وهو خطأ ، إذ هى صوت صامت أصيل فى باب الصوامت ، ولا صلة له بالحروف المعتلة أو الحركات الطويلة ، وقد أوضحنا هذه الحقيقة فى رسالتنا للدكتوراة(٨) .

أما حروف المد فهى الحركات الطوال السابق ذكرها ، فى حين أن حروف اللين هى الواو والياء فى مثل : (وَرد ـ يَرد ـ عوْن ـ عيْن) وليس فى مثل : (قولوا ـ قيلى) فهما فى المثالين الأخيرين حركتان خالصتان .

أما الحركات فهى ـ فى نظر القدماء ـ الفتحة والضمة والكسرة ، فى مقابل السكون ، وهو عندهم على ضربين ، حروف المد الثلاثة ، والصامت العارى عن الحركات ، يقول القسطلانى(٩) : (وأما السكون فنوعان ، حى وميت ، فالثانى الألف وأختاها ، لأنه لا حيز ، ولا مقطع لمن محقق ، فإذا انفتح ما قبل الواو والياء فسكونهما حى) وهذا يعنى أن الواو والياء ـ فى نظر القسطلانى ـ يمكن أن تتحولا من السكون الميت ـ حروف المد ـ إلى السكون الحى ، أى أنهما تصبحان من الصوامت ، أى الحروف الصحاح ، وهنا لا يختلفان عن غيرهما من الصوامت العارية عن الحركات ، طويلها وقصيرها .

ويرى المحدثون أن الحركات العربية ست : الفتحة ـ الضمة ـ الكسرة ـ ألف المد ـ واو المد ـ ياء المد + السكون ، وهو حركة على المستوى(١٠) الوظيفى ، ولا صلة لها بالحركات الطوال على الإطلاق ، إذ هو يلحق الصامت فقط ، الذى يتبع بحركة ـ طويلة أو قصيرة ـ أو بالسكون

وقبل أن ننهى الحديث عن الحروف والحركات تجدر الاشارة إلى حروف المعجم التى جاءت فى بعض السور ، وبرغم كثرة ما قيل فى هذا الموضوع فإننا نشير إلى بضع ملاحظات نضعها بين يدى القارئ الكريم :

---

(٨) قراءة الأربعة ، انظر ص ١٦٤ .

(٩) اللطائف ١/ ٩٨٧ .

(١٠) علم اللغة العام (القسم الأول) للدكتور كمال بشر ، ص ٢٣٣ .

١ ـ جميع هذه الحروف من الصوامت ، تأمل : (ألف ـ لام ـ ميم ـ صاد ـ رَ ـ كاف ـ هـَ ـ يَ ـ عين ـ طَ ـ سين ـ حَ ـ قاف ـ نون = ١٤) وهى نصف صوامت العربية بالتمام والكمال ، ولم يكن من الممكن استخدام الحركات طويلة أو قصيرة لأنها لا تكون فى بداية الكلمة العربية ـ كما أسلفنا ـ ومن ثم لا تصلح أن تأتى فى بداية السور القرآنية .

٢ ـ جاءت خمسة من هذه الحروف الأربعة عشر مقصورة بدون همزة ، أى : (رَ ـ هـَ ـ يَ ـ طَ ـ حَ) وليست : (راء ـ هاء ـ ياء ـ طاء ـ حاء) وهو أمر جائز فى العربية .

وهنا نشير إلى قاعدة الوقف التى تلغى التنوين والإعراب(١١) إضافة إلى تحويل تاء التأنيث إلى هاء ، تلك القاعدة التى تطبق فى الحالات الآتية :

أ ـ العدد : حين نعد : واحدْ ـ اثنانْ ـ ثلاثهْ ـ أربعهْ .. إلخ وليس : واحدٌ ـ اثنانِ ، ثلاثةٌ ـ أربعةٌ ، فإذا أدخلنا كلمة من هذه الكلمات فى جملة ، فقلنا مثلاً : (هم أربعةٌ من الرجال ـ رأيت ثلاثةً فقط) كان الإعراب والتنوين ، وبقيت تاء التأنيث كما هى .

ب ـ نهاية الجملة : حين نقف على نهاية جملة من الجمل يكون السكون فقط إلا إذا انتهت الجملة بمنون منصوب فإنه يوقف عليه بألف المد ، وهو حركة طويلة ، كما نعرف ، فنقول :

هـذا كتابْ	وليس	هذا كتابٌ
قرأت فى كتابْ	وليس	قرأت فى كتابٍ
قرأت كتابـا	وليس	قرأت كتابـًا
هذه مدرسة(١٢)	وليس	هذه مدرسةٌ

---

(١١) قراءة الأربعة الشواذ ، انظر ص ٢٩٣ .

(١٢) تتحول التاء إلى هاء عند الوقف مع بقاء الرمز كما هو ، أى تبقى النقطتان فى الحالين ، ولا تسقطان ألبتة ، إذ التغير فى النطق ، لا فى الكتابة .

جـ ــ حروف المعجم : إذا نطقنا هذه الحروف مفردة وقفنا بالسكون أيضاً ، فنقول : ألفْ ــ باءْ ــ تاءْ ــ ثاءْ ــ جيمْ ــ حاءْ ــ خاءْ .. إلخ ، ولا نقول : ألفٌ ــ باءٌ ــ تاءٌ ــ ثاءٌ ــ جيمٌ ــ حاءٌ ــ خاءٌ .. إلخ ، فهذا نوع من المبالغة فى الفصاحة ، من باب إن الشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده .

أما نطقها مقصورة ممالة مع هاء السكت فهو فى غاية القبح والشناعة ، ولا يمت للعربية بصلة ، ومع هذا فقد تجد من بين طلاب اللغة العربية من ينطق : ألفْ ــ بهْ ــ تِهْ ــ ثِهْ ــ جيم ــ حَهْ ــ خَهْ ــ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !! .

ولكننا لو وضعنا حرفاً من هذه الحروف فى جملة من الجمل مثل : (هذه ألف جميلة ــ تلك ثاء رائعة) كان الاعراب والتنوين .

وفى الحروف التى جاءت أوائل السور انتهت بالسكون ، كما رأينا فى : (ألفْ ــ لامْ ــ ميمْ ــ نونْ ــ قافْ) وهو أمر طبيعى ومنطقى ، فما الرأى فيما جاء مقصوراً ــ كما رأينا فى الأحرف الخمسة السابقة ــ هل يجوز القياس عليها حين ننطق حروف المعجم مفردة ، فنقول : (ألفْ ــ بَ ــ تَ ــ ثَ ... إلخ) ولا نقول : ألفْ ــ باءْ ــ تاءْ ــ ثاءْ ... ؟؟ هذا ما لا نراه ، وإنما يبقى النطق القرآنى للأحرف المقصورة دون قياس عليه .

٣ ــ إن فواتح السور ارتبطت فى معظمها بالقرآن الكريم ، تأمل : «الٓمٓ، ذلك الكتاب ، لا ريب فيه ، هدى للمتقين(١٣) ــ الٓمٓصٓ ، كتاب أنزل إليك من ربك(١٤) ــ الٓر تلك آيات الكتاب(١٥) الحكيم ــ الٓر كتاب أحكمت آياته(١٦) » وهكذا .

وجاء فى تفسير ابن كثير : (قال بعض أهل العربية : هى حروف من حروف المعجم ، استغنى بذكر ما ذكر منها فى أوائل السور عن ذكر بواقيها التى هى تتمة الثمانية والعشرين حرفاً ، كما يقول القائل : ابنى يكتب فى ــ أ ب ت ث ــ أى فى حروف المعجم الثمانية والعشرين ، فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها)(١٧) .

---

(١٣) سورة البقرة .

(١٤) سورة الأعراف .

(١٥) سورة يونس .

(١٦) سورة هـــود .

(١٧) ابن كثير ، ١/ ٣٨

وعليه فإننا نؤيد الرأى القائل بأن هذه الحروف إنما ذكرت فى أوائل السور التى ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق جميعاً — من عرب وعجم، وإنس وجن — عاجزون عن معارضته، مع أنه مركب من هذه الحروف التى يستخدمها الناس، دون اختراع حروف جديدة، لا يعرفونها.

ومن ناحية أخرى فإن النطق بالحروف نفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام، الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسماء الحروف فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ، وخالط أهل الكتاب، وتعلم منهم، وكان مستغرباً مستبعداً من الأمى التكلم به استبعاد الخط والتلاوة، كما قال عز وجل: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك، إذا لارتاب المبطلون»(١٨) فكان حكم النطق بذلك مع اشتهار أنه — صلى الله عليه وسلم — لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكم الأقاصيص المذكورة فى القرآن الكريم، التى لم تكن قريش — ومن دان بدينها — فى شىء من الإحاطة بها فى أن ذلك حاصل له — صلى الله عليه وسلم — من جهة الوحى، وشاهد بصحة نبوته، وبمنزلة أن يتكلم بما يوحى إليه، من غير أن يسمعه من أحد من(١٩) البشر.

٤ — فى فواتح السور تنطق الحروف بشكل متصل، وكأنها كلمة واحدة، أى / Ŧasi:mmi:m-?aliFLa:mmim / إلا أن أبا جعفر — من القراء العشرة — ورد عنه السكت على هذه الحروف، وهو عبارة عن (قطع الصوت زمناً — هو دون الوقف عادة — من غير تنفس)(٢٠) أى أنه يفصل بين كل حرف منها بسكتة يسيرة(٢١)، فينطق الحروف بشكل منفصل هكذا:

Ŧa-si:n- mi:m-?aliF-La:m- mi:m /

وهلم جرا.

---

(١٨) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

(١٩) الكشاف، ١/ ١٧.

(٢٠، ٢١) النشر، ٢/ ٢٤٠، ٢٤١.

ب ــ الأحرف والقراءات :

جاءت كلمة : (أحرف) ومفردها : (حرف) فى حديث الأحرف السبعة، الذى ورد عن الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ بروايات كثيرة، منها : (أنزل القرآن على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه).

وقد ناقش قضية الأحرف السبعة، ومعنى هذه الأحرف القدماء من المفسرين وعلماء القراءات، مثل الطبرى فى تفسيره وابن الجزرى فى النشر، كما ناقش القضية من المحدثين المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه فى اللهجات العربية، وأستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين فى كتابه تاريخ القرآن، مع زيادة فى البسط والتفصيل، كما ألحق بكتابه المذكور روايات حديث الأحرف السبعة، ونقده لهذه الروايات، كذلك تعرضت لتفسير هذه الأحرف السبعة فى قراءة الأربعة الشواذ.

وبعد إمعان النظر فى هذه القضية أستطيع القول :

أولاً ــ إن المقصود بالسبعة هنا حقيقة العدد، بحيث لا يزيد، ولا ينقص، وليس المقصود الكثرة والتعدد.

ثانياً ــ إن المقصود بهذه الأحرف السبعة أوجه من القراءة مختلفات، هذا الاختلاف الذى لا يخرج عن أوجه سبعة، هى :

١ ــ الأصوات : مثل إخفاء النون قبل الغين والخاء أو إظهارهما فى[٢٢] مثل : «من خير[٢٣] ــ من غل[٢٤]».

٢ ــ الصرف : «وما يخادعون إلا أنفسهم»[٢٥] قرئ : «وما يخدعون»[٢٦].

٣ ــ النحو : «فلا خوفٌ عليهم»[٢٧] قرئ بفتح الفاء، بدون تنوين[٢٨].

---

(٢٢) النشر، ٢/٢٢.

(٢٣) سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

(٢٤) سورة الأعراف، الآية ٤٣.

(٢٥) سورة البقرة، الآية ٩.

(٢٦) النشر، ٢/٢٠٧.

(٢٧) سورة البقرة، الآية ٩.

(٢٨) النشر، ٢/٢١١.

٤ــ الدلالة: حين يكون التغير بإبدال كلمة بأخرى، مثل: «كالعهن المنفوش(٢٩)» قرأ ابن مسعود وسعيد بن جبير: (كالصوف المنفوش)(٣٠).

٥ــ الزيادة أو النقصان: مثل: «والليل إذا يغشى(٣١)، والنهار إذا تجلى، وما خلق الذكر والأنثى» قرئ: (والذكر والأنثى) بدون: (وما خلق) ومثل: «وأنذر عشيرتك الأقربين(٣٢)» روى عن ابن عباس بزيادة: (ورهطك منهم المخلصين)(٣٣).

٦ــ التقديم او التأخير: مثل «وجاءت سكرة الموت(٣٤) بالحق» قرئ: (وجاءت سكرة الحق بالموت)(٣٥).

٧ــ النقط أو الإهمال: وهو ما يكون بنقط بعض الحروف المهملة، أو إهمال بعض الحروف المعجمة، مثل: (ننشرها)(٣٦) قرئ بالزاى المعجمة، أى: (ننشزها)(٣٧)، ومثل: (فتبينوا)(٣٨) قرئ: (فتثبتوا) من التثبت(٣٩).

ثالثاًــ ليس معنى ما سبق أن كل آية أو كلمة تقرأ على سبعة أوجه أو سبعة أحرف، بل المراد أن الخلاف فى قراءة أية آية أو كلمة لا يخرج عن تلك الأوجه السبعة التى ذكرناها.

---

(٢٩) سورة القارعة، الآية ٥.

(٣٠) اللطائف للقسطلانى ١/٤٠.

(٣١) سورة الليل، الآيات من ١ ــ ٣.

(٣٢) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

(٣٣) اللطائف ١/٤٠.

(٣٤) سورة ق، الآية ١٩.

(٣٥) اللطائف ١/٣٩.

(٣٦) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

(٣٧) اللطائف ١/٣٨.

(٣٨) سورة الحجرات، الآية ٦.

(٣٩) الاتحاف للبنا الدمياطى، ص ٣٩٧.

رابعا ــ كتب المصحف الإمام فى عهد عثمان ــ رضى الله عنه ــ على العرضة الأخيرة ، ثم أحرقت جميع المصاحف الخاصة التى كان الصحابة قد كتبوها لخاصة أنفسهم ، مثل مصحف ابن مسعود ومصحف أبى بن كعب ومصحف ابن عباس ، وأصبح المصحف الإمام هو المصحف المعتمد ، المسموح القراءة به فقط .

وعليه فقد أضيف شرط موافقة الرسم ، أى الرسم العثمانى ــ المنسوب إلى عثمان بن عفان ــ إلى الشرط الأول والأهم ، وهو صحة السند ، ثم أضيف بعد ذلك شرط ثالث ، هو موافقة قواعد العربية ، ولو بوجه .

وكان من نتيجة تطبيق شرط موافقة الرسم أن خرج من الأوجه السبعة التى ذكرناها ، أو الأحرف السبعة :

١ ــ الزيادة أو النقصان : فلا يمكن زيادة كلمة على الرسم العثمانى ، أو نقصان كلمة منه ، أو حتى حرف من كلمة .

٢ ــ التقديم أو التأخير : فلا نستطيع أن نقدم كلمة على أخرى ، أو حرفاً من كلمة على آخر .

٣ ــ الدلالة : فلا يمكن أن توضع كلمة مكان أخرى ألبتة .

أما الأوجه الأربعة الباقية فهى محور الخلف بين القراءات التى وصلتنا الآن ، وبخاصة الصحيح منها .

ومن الجدير ذكره أن هناك خروجاً قليلاً عن الرسم العثمانى فى القراءات الصحيحة والشاذة على السواء ، ولكنه خروج محدود معروف مشهور عند علماء القراءات (٤٠) ، وبسبب هذا الخروج اشترط العلماء موافقة الرسم ، ولو احتمالاً .

ولكن لماذا فى الرسم ولو احتمالاً وفى قواعد العربية ، ولو بوجه ، أو حتى بوجيه ؟ السبب أن الشرط الأهم والأساس هو صحة السند ، أما الشرطان الآخران فهما مساعدان ومساندان فقط .

---

(٤٠) انظر مثلاً النشر ، باب الوقف على مرسم الخط ، ٢/ ١٢٨ .

ومن ناحية أخرى فقد نص العلماء على أن القراءات التى توافرت فيها الشروط الثلاثة السابقات هى قراءات العشرة التى ستأتى الإشارة إليها، وما عداها شاذ، لا تصح القراءة به فى الصلاة، أو فى غيرها.

خامساً — إن رخصة الأحرف السبعة كانت نوعاً من التيسير على المسلمين، فقد كان فيهم الشيخ الفانى والجارية الصغيرة، ومن تعود على نطق معين، لا يستطيع التحول عنه، ولذا أبيح له أن يقرأ على أى حرف يتيسر(٤١) له، أما الآن وبعد وفاة الرسول — صلى الله عليه وسلم — فإن هذه الرخصة قد انتهت، وإن بقى روحها، أى روح التيسير والتوسعة على أمة محمد — عليه الصلاة والسلام — وبخاصة فى الجانب الأصواتى، وإن كان فى أضيق نطاق ممكن، وعند الضرورة فقط، فهذا الكبير الذى فاته ركب التعليم ولا يستطيع أن ينطق إلا حسب تعوده، وكذلك الطفل الصغير أو غير العربى، هؤلاء الذين لا يستطيعون قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة، هل يحرمون قراءة الكتاب الكريم؟ إنهم يقرأون قدر الطاقة والوسع، محاولين محاكاة النطق الصحيح، ولا يكلفون ما لا يطيقون.

وهذا نوع من الواقعية اللغوية، لقد نزل القرآن الكريم ليكون كتاب البشرية جمعاء، الصغير والكبير، العالم والمتعلم، العرب والعجم، فهل سينطق هؤلاء جميعاً بطريقة واحدة؟ إن كلا يحاول أن يكون نطقه صحيحاً، شبيهاً بنطقه — صلى الله عليه وسلم — ولكن من منا يدرك النطق النبوى، بل أى قدر من الشبه بهذا النطق يدركه؟؟ إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

ولا يعنى هذا أننا نغض من شأن النطق الصحيح، أو صاحبه، إننا نسجل هنا أن أى انحراف طفيف عن النطق هو لحن محرم، كما نشير إلى قوله — صلى الله عليه وسلم: (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة)(٤٢) فى حين أن: (الذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه، وهو عليه شاق له أجران)(٤٣) فهل تتساوى درجة السفرة الكرام البررة مع الأجرين؟ وإنما نحن نشير إلى نوع من الناس، عرباً كانوا أو عجماً

---

(٤١) تاريخ القرآن الكريم للدكتور عبد الصبور شاهين، ص ٣٩.

(٤٢، ٤٣) صحيح مسلم، ١/ ٣١٩.

لا يحسنون النطق مع رغبة صادقة ومحاولة دائبة للتشبه بالنطق الصحيح، بسبب ما تعودوا عليه من لهجات دارجة أو لغات محلية.

سادساً - إن كل هذه القراءات، الصحيح منها والشاذ، والتى نراها فى التيسير للدانى والشاطبية والسبعة لابن مجاهد والنشر لابن الجزرى والاتحاف للبنا الدمياطى وغيرها، كل هذه القراءات التى وردت إلينا هى جزء من الأحرف السبعة، من غير تعيين لهذا الجزء أو ذاك، وعليه فإن القراءات السبع ليست هى الأحرف السبعة، بل إن هذه السبع وغيرها - كما ذكرنا - جزء فقط من الأحرف السبعة.

وبعبارة أخرى فإن الأحرف السبعة هى كل ما ورد عن سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - من أوجه يمكن القراءة بها، وهى المعين الذى جاءت به، وصدرت عنه كل القراءات والروايات، صحيحة كانت أو شاذة (٤٤).

وبعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - رأينا كلمة: (حرف) تجمع على حروف، أى جمع كثرة، وليس على: (أحرف) أى جمع قلة، كما رأينا فى حديث الأحرف السبعة، فما السر فى ذلك؟ إن معنى الحرف والحروف قد ضاق إلى أقل حد ممكن، فقد أصبح الحرف يعنى وجهاً واحداً فى موضع واحد، مثلاً: قرأ رؤبة: (فأما الزبد فيذهب جفالا) باللام، فى حين أنها فى رواية حفص عن عاصم: (جفاء) (بالهمزة) فهنا نستطيع أن نقول عن هذا الوجه: إنه حرف رؤبـة.

وننقل هنا بعض النصوص الدالة على وجهة نظرنا:

١ - يقول عبد الله بن مسعود: (... فمن قرأ على قراءتى، فلا يدعنها رغبة عنها، ومن قرأ على شىء من هذه الحروف، فلا يدعنه رغبة عنه، فإن من جحد بآية، جحد به كله)(٤٥).

---

(٤٤) القراءات الصحيحة التى يباح القراءة بها فى الصلاة وفى غيرها هى قراءات العشرة: نافع بن أبى نعيم المدنى (ت ١٦٩ هـ) - عبد الله بن كثير المكى (ت ١٢٠ هـ) - عاصم بن أبى النجود الكوفى (ت ١٢٧ هـ) - حمزة بن حبيب الزيات الكوفى (ت ١٥٦ هـ) - على بن حمزة الكسائى الكوفى (ت ١٨٩ هـ) - أبو عمرو بن العلاء البصرى (ت ١٥٤ هـ) - عبد الله بن عامر اليحصبى الدمشقى (ت ١٢٨ هـ) - أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدنى (ت ١٣٠ هـ) - خلف بن هاشم الكوفى (ت ٢٢٩ هـ) - يعقوب بن إسحاق الحضرمى البصرى (ت ٢٠٥ هـ).

(٤٥) تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين، ص ٢٣٧.

٢ـــ قال نافع بن أبى نعيم «ت ١٦٩ هـ» : (تركت من قراءة أبى جعفر «ت ١٣٠ هـ» سبعين حرفاً)(٤٦) .

٣ـــ جاء فى النشر لابن الجزرى «ت ٨٣٣ هـ» : إن خلف بن هشام الكوفى «ت ٢٢٩ هـ» خالف حمزة بن حبيب الكوفى «ت ١٥٦ هـ» ـــ يعنى فى اختياره ـــ فى مائة وعشرين حرفاً ، قلت ـــ أى ابن الجزرى : تتبعت اختيازه ـــ أى خلف ـــ فلم أره يخرج عن قراءة الكوفيين فى حرف واحد ، بل ولا عن حمزة والكسائى «ت ١٨٩ هـ» وعاصم «ت ١٢٧ هـ» إلا فى حرف واحد ، هو قوله تعالى : «وحرام(٤٧) على قرية» قراها كحفص ، والجماعة بالألف(٤٨) أى : (قُرى) على الجمع .

٤ـــ قال نافع : (قرأت على سبعين من التابعين ، أواثنين وسبعين ، فنظرت ما اجتمع عليه اثنان أخذته ، وما شذ فيه واحد تركته ، حتى ألفت هذه القراءة) ويعقب استاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين قائلاً : (فهذا نص أصيل يفصل فصلاً تاماً بين المقبول فى نظر نافع والشاذ الذى تركه ، على أساس من الرواية ، ومدى صدقها باجتماع الناس عليها ، أو انفراد أحدهم بها ، فمثل هذه المفردات روايات آحاد ، أو حروف تروى ، ولا يقرأبها ـــ فى نظر نافع ـــ وقد تكون صحيحة لدى غيره من القراء)(٤٩) .

٥ـــ وهناك نص أخير لا يسعنا أن نتجاهله ، يقول نافع عن منهجه فى الإقراء : (أنا أقرئ الناس بجميع القراءات ، حتى إذا جاء من يطلب حرفى أقرأته به) .

فهذا النص الأخير بحاجة إلى بعض المناقشة ، فكلمة : (حرفى) معناها (قراءتى) التى اخترتها ؟؟ ويكون معنى الحرف هنا هو القراءة التى يختارها صاحبها ، ويتميز بها عن غيره ؟ هذا أمر محتمل ، ثم ضاق هذا المعنى إلى الاختيار فى موضع واحد فقط ، أو اختيار وجه واحد فقط .

---

(٤٦) طبقات القراء لابن الجزرى ٢ / ٢٣٣ .

(٤٧) سورة الأنبياء ، الآية ٩٥ .

(٤٨) النشر ١ / ١٩١ .

(٤٩) تاريخ القرآن ، ص ٢٠١ .

على أية حال فقد أصبح للحرف مقابلان ، الأول ــ وهو سابق زمنياً على الثانى ــ هو القراءة ، فبعض الصحابة أو التابعين رويت عنهم قراءات كاملة ، و بعضهم رو يت عنه حروف فقط فروى عن ابن مسعود وابن عباس وابن كثير المكى قراءات ، فى حين أن حذيفة بن اليمان وعبد الله بن الزبير وسعيد بن المسيب مثلاً رو يت عنهم حروف ، أو بعض الحروف (٥٠) ، كما رأينا رؤبة الذى روى عنه : (جفالا) بدلاً : (جفاء) .

ومن ناحية أخرى بدأت تظهر عبارة : (فرش الحروف) فى مقابل الأصول ، وهو ما نجده فى كتب القراءات مثل السبعة والنشر واللطائف ، حيث يبدأ بالأخير ، ثم يثنى بالأول ، و يقصد بالأصول القواعد العامة التى تجمع قراءة من القراءات ، أو التى تخص مجموعة معينة من القراءات ، مثل أحكام : النون الساكنة والتنوين ــ الهمز ــ الإدغام ــ المد ... إلخ وكلها ظواهر أصواتية ، كما نرى .

أما فرش الحروف ــ وأحياناً يطلق عليه الفرش ــ فهو يعنى بالأحكام المفصلة ، فى كل آية من آيات القرآن الكريم ، بدءاً من الفاتحة حتى الناس ، وقد تكون هذه الأحكام أصواتية أو صرفية أو نحوية أو دلالية .

ونختم حديثنا عن الحرف والقراءة باقتباس عن النشر ، نرمى من ورائه إلى إعطاء مزيد من الإيضاح لمعنى فرش الحروف ، يقول ابن الجزرى : [واختلفوا ــ أى القراء العشرة ــ فى : (كالمهل يغلى) (٥١) فقرأ ابن كثير وحفص بالياء ، على التذكير ، وقرأ الباقون ــ باقى العشرة ــ بالتاء على التأنيث ، واختلفوا فى : (فاعتلوه) (٥٢) فقرأ نافع وابن كثير وابن عامر و يعقوب بضم التاء ، وقرأ الباقون بكسرها ...] وهكذا (٥٣) .

جـ ــ الحرف والفعل والاسم :

قسم النحاة الكلمة إلى هذه الأقسام الثلاثة ، لأن الكلمة إن دلت على معنى فى

---

(٥٠) السابق ، ص ١٩٩ .

(٥١) سورة الدخان ، الآية ٤٥ .

(٥٢) سورة الدخان ، الآية ٤٧ .

(٥٣) انظر النشر ٢ / ٣٧١ .

نفسها ، غير مرتبطة بزمان فهي الاسم ، وإن اقترنت بزمان فهي الفعل ، وإن لم تدل على معنى في نفسها — بل في غيرها — فهي الحرف(٥٤) .

وقد سمي الحرف بهذا الاسم لأنه وصلة بين الاسم والفعل ، فهو طرف لكل واحد منهما ، وطرفا الشيء حداه من أوله ، وآخره ، ومنه قوله عز وجل : (وأقم الصلاة طرفي(٥٥) النهار) أي أوله وآخره(٥٦) .

وبرغم ما سبق فإننا لا نقلل من قيمة الحرف وأهميته ، صحيح أنه مرتبط بالاسم أو الفعل . كما نرى مثلاً في : (حرف الجر — حرف النصب — حرف الجزم) ولكن دوره ليس ثانوياً ، ولا هامشياً في الجملة ، بل إن دوره — فيما نرى — على قدم المساواة مع الاسم والفعل .

ثانياً — الرمـــز :

وقعت هذه الكلمة في موضع واحد من القرآن الكريم ، هو قوله تعالى : « قال : رب اجعل لي آية ، قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا »(٥٧) ونفس المعنى تجده في : « قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا »(٥٨) .

ولا يتضح السياق الذي نزلت فيه الآيات السابقات دون ذكر ما جاء في بداية سورة مريم : « كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا(٥٩) ، قال : رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وإني خفت الموالي(٦٠) من ورائي ، وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا ، يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل

---

(٥٤) شرح ابن عقيل ١/١٥ .

(٥٥) سورة هود ، الآية ١١٤ .

(٥٦) التمهيد لابن الجزري ، ص ٧٥ .

(٥٧) سورة آل عمران ، الآية ٤١ .

(٥٨) سورة مريم ، الآيتان ١٠ ، ١١ .

(٥٩) خفية وسراً .

(٦٠) الأقارب والعصبة .

له من قبل سميا ، قال رب أنى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا ، قال : كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ، ولم تك شيئا ، قال : رب اجعل لى آية ... » (٦١) .

إن زكريا — عليه السلام — يريد آية يعرف بها أن امرأته العاقر قد حملت ، فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسى الذى كان فيه الدعاء ، وكانت فيه الاستجابة ، ويؤدى بها حق الشكر لله ، الذى وهبه على الكبر غلاماً ، وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ، ويحيى مع الله ثلاثة أيام ، ينطلق لسانه إذا سبح ربه ، ويحتبس إذا كلم الناس ، وهو سوى معافى فى جوارحه ، لم يصب لسانه عوج ، ولا آفة (٦٢) .

لقد وجد زكريا فى ذات نفسه غير المألوف فى حياته وحياة غيره ، لسانه هذا هو لسانه ، ولكنه يحتبس عن كلام الناس ، وينطلق لمناجاة ربه ، فأى قانون يحكم هذه الظاهرة ؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية ، فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة ، كذلك رزقه بيحيى وقد بلغه الكبر ، وامرأته عاقر (٦٣) .

ولكن — عليه السلام — قد يحتاج إلى الكلام ليرد على سؤال ، أو يأمر بأمر ، وقد يكون هذا أو ذاك أمراً ضرورياً ، لا مناص عنه ، وهنا استثنى له ربه الرمز فقط ، فما معنى هذه الكلمة ؟ إن الرمز هو الإشارة التى تغنى عن الكلام ، تلك الإشارة التى تكون بتحرك اليد أو الرأس أو الشفتين أو الحاجبين ، وأصل الرمز التحرك ، يقال : ارتمز إذا تحرك ، ومنه قيل للبحر (٦٤) الراموز بسبب تلاطم أمواجه ، وحركتها الشديدة .

وبالفعل احتاج نبى الله زكريا إلى أن يبلغ قومه أمراً من ربهم ، فلم يملك إلا أن صدع به : (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً) فأوحى معناها أشار ومصدرها إشارة ، أى رمز ، أى أن زكريا أخبر قومه بطريق الرمز فقط الذى استثناه الله ،

---

(٦١) علامة .

(٦٢) الظلال ٥/ ٤٢٧ .

(٦٣) السابق ١/ ٥٨٢ ، ٥٨٣ .

(٦٤) لسان العرب وأساس البلاغة ، مادة : (رمز) .

فكيف كان هذا الإخبار؟ روى عن ابن عباس: «كتب لهم على الأرض» (٦٥) ولذا فإن الكتابة أيضاً يمكن أن تدخل ضمن الرمز، إذ هي نتيجة تحرك اليد أو تحرك القلم أو أية أداة أخرى من أدوات الكتابة، بل إن هذا الرمز يختلف عن أنماط الرمز الأخرى التي تكون باليد أو الرأس أو الشفتين أو الحاجبين أو غيرهما، لأن أثر الكتابة يبقى على مر السنين وكر الدهور.

فكأننا خصصنا التحرك فى الرمز بتحرك تلك الأعضاء من الجسم عوضاً عن الكلام، وهذا ما يحدث كثيراً فى الحياة اليومية، حيث يرغب الناس عن الكلام إلى الرمز والإشارة، فكأن معنى الرمز قد ضاق، لأنه انتقل من التحرك ـ أى تحرك ـ إلى حركة أعضاء بعينها، بهدف الاستعاضة عن الكلام.

وعليه فإن إطلاق الرمز على الكتابة نوع من المجاز المرسل، علاقته السببية، فإن تحرك اليد هنا سبب الكتابة، وهذه الأخيرة نتيجة لهذا التحرك، ونظير ذلك قوله تعالى: «وينزل لكم من السماء (٦٦) رزقا» والذى نزل من السماء ليس الرزق، وإنما هو المطر الذى يتسبب عنه الرزق (٦٧).

ثالثاً: الصــوت:

وقعت كلمة: (صوت) وجمعها: (أصوات) ثمانى مرات، كما يلى:

أـ «واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» (٦٨).

ب ـ «يا أيها الذين آمنوا، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم، وأنتم لا تشعرون» (٦٩).

---

(٦٥) تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٢، ٣/ ١١٢. الكشاف ١/ ١٨٩، ٢/ ٤٠٦.

(٦٦) سورة غافر، الآية ١٣.

(٦٧) فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى، ص ٢٢٠.

(٦٨) سورة لقمان، الآية ١٩.

(٦٩) سورة الحجرات، الآية ٢.

جـ ـ «إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» (٧٠).

د ـ «واستفزز من استطعت منهم بصوتك، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك» (٧١).

هـ ـ «وخشعت الأصوات للرحمن، فلا تسمع إلا همساً» (٧٢).

وهنا نلاحظ ما يلي:

١ ـ وقعت كلمة: (صوت) مفردة أربع مرات، ومجموعة أربع مرات أيضاً.

٢ ـ كلمة: (صوت) المفردة لم تأت إلا مضافة، وهي ترتبط بالخير أو الشر أو الحسن أو القبح حسبما يضاف إليها، فمن خير الخلق، وسيد البشر ـ صلى الله عليه وسلم: (صوت النبي) إلى شر الخلق، إبليس اللعين الرجيم: (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) ومن ابن لقمان ـ رضي الله عنه: (واغضض من صوتك) إلى أبغض الأصوات وأشدها نكارة وقبحاً، وإنه: (لصوت الحمير).

٣ ـ جاءت كلمة أصوات معرفة مرتين، ومضافة مرتين أيضاً، فإن كانت مضافة، فهي حسبما يضاف إليها، ففي: (لا ترفعوا أصواتكم) أضيف إليها الضمير العائد على من يرفعون أصواتهم فوق صوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي: (يغضون أصواتهم) أضيف الضمير العائد على من يغضون أصواتهم عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقوم الأولون ـ الذين يرفعون الأصوات ـ مذمومون، غير ممدوحين، على عكس من يغضون الأصوات.

فإن لم يضف إليها شيء دلت على النكارة والقبح: (إن أنكر الأصوات ـ وخشعت الأصوات) وكأن هذه الأصوات ليس من طبيعتها الخشوع، ولكن موقف الناس عند الحشر أمام ربهم يجبرهم على خفت أصواتهم، عدا هذا الهمس الناتج عن وقع أقدام الناس، وهو وقع خافت قليل الصوت، يشبه وقع أقدام الإبل على الرمال (٧٣).

(٧٠) سورة الحجرات، الآية ٣.

(٧١) سورة الإسراء، الآية ٦٤.

(٧٢) سورة طه، الآية ١٠٨.

(٧٣) الكشاف، ٢/٤٤٧.

٤ ـ الصوت فى الآيات السابقات نسب إلى الإنسان والجن : (إن إبليس كان من الجن) كما نسب إلى الحمير أيضاً ، وليس الصوت مختصاً بالإنسان فقط ، أو مختصاً بالصوت اللغوى ، من باب أولى ، فالصوت هنا وجمعه استخدما بالمعنى العام لهاتين الكلمتين ، يعنى أى صوت يمكن أن تلتقطه الأذن البشرية(٧٤) ، أما الأصوات التى لا تتمكن الأذن من التقاطها فهى بالنسبة للفرد العادى غير موجودة ، ولكن الأجهزة العلمية يمكن أن ترصدها ، كما أن بعض مخلوقات الله ـ غير الانسان ـ تستطيع أن تلتقطها .

ولكن هذا المعنى العام قد يضيق إلى الصوت الإنسانى فقط ، وهذا ما أراده القسطلانى بتعريفه للصوت ، إذ يقول : (والصوت هو الحاصل من دفع الرئة الهواء المحتبس بالقوة الدافعة ، فيتموج فيصدم الهواء الساكن ، فيحدث الصوت من قرع الهواء بالهواء المندفع من الرئة)(٧٥) والواقع أن ما ذكره القسطلانى يعد تفسيراً ـ من وجهة نظر الرجل ـ لكيفية حدوث الصوت الإنسانى أكثر منه تعريفاً لهذا الصوت .

بل قد يضيق هذا المعنى إلى الصوت اللغوى فقط ، أى الذى يشكل جزءاً من اللغة ، أية لغة ، يقول الدكتور كمال بشر : (الصوت اللغوى أثر سمعى يصدر طواعية واختياراً عن تلك الأعضاء المسماة أعضاء النطق ، هذا الأثر الذى يظهر فى صورة ذبذبات معدلة وموائمة لما يصاحبها من حركات أعضاء النطق ، و يتطلب الصوت اللغوى وضع هذه الأعضاء فى أوضاع معينة محددة ، أو تحريكها بطرق معينة محددة أيضاً ، ومعنى هذا أن المتكلم لابد أن يبذل مجهوداً ما كى يحصل على الأصوات اللغوية)(٧٦) .

و يضيف الدكتور كمال بشر ثانياً : (نستنتج مما تقدم أن الصوت اللغوى له عدة جوانب ، منها الجانب العضوى والجانب الفيزيائى ، و يتصل الجانب الأول بأعضاء النطق وأوضاعها وحركاتها ، والثانى يتصل بتلك الآثار السمعية التى تظهر

---

(٧٤) تلتقط الاذن البشرية الصوت إذا كان تردده من ستة عشر إلى ستة عشر ألف ذبذبة فى الثانية الواحدة تقريباً ، علم الأصوات تعريب الدكتور عبد الصبور شاهين ، ص ١٦ .

(٧٥) اللطائف ١/١٨٣ .

(٧٦) علم اللغة العام (الأصوات) ، ص ٨١ .

فى الهواء ، فى صورة ذبذبات صوتية ، تصل إلى أذن السامع ، فتحدث فيه تأثيراً معيناً)(٧٧) .

وفى موضع آخر يقارن الدكتور بشر بين الصوت بوصفه فونيا (وحدة أصواتية) وبين الصوت بوصفه عضواً فى فونيم فيقول : (ومعنى هذا أن كلمة صوت نفسها لها معنيان ، المعنى الأول معنى عام تجريدى يقصد به النوع ، لا الأفراد ، والصور الجزئية ، وذلك كنوع النون أو الراء أو اللام ... إلخ ، والمعنى الثانى معنى خاص يطلق على الصوت الجزئى المفرد ، مع مراعاة صفاته النطقية والسمعية ، وذلك كصوت النون المختلفة وأعضائها المتعددة ، التى تلاحظ فى النطق فى السياقات الصوتية المتنوعة بتنوع الموقع ، وكذلك الحركات ، فالفتحة صوت واحد باعتبار المعنى الأول ، ولكنها أصوات ثلاثة أو أكثر من وجهة النظر الثانية ...)(٧٨) وهكذا .

و يقول الدكتور عبد الرحمن أيوب : (إن الأصوات هى المظهر المادى للغة الذى يمكن أن تدرس دراسة موضوعية)(٧٩) .

والآن هل نستطيع أن نقارن بين الألفاظ الثلاثة : الحرف والرمز والصوت ؟ نعم ، هذا ما سنقوم به ، فنقول :

لقد تفرع من المعانى المعجمية لكلمة : (حرف) معان اصطلاحية ، فى علوم النحو والقراءات والأصوات ، ففى النحو كان الحرف مقابلاً للاسم والفعل ، وفى القراءات ورد الحرف فى أحاديث : (أنزل القرآن على سبعة أحرف ...) وهو ما كان مثاراً للنقاش والمعالجة من القدماء والمحدثين ، وقد حاولنا ــ بعد النظر ملياً فى القضية برمتها ــ أن نقدم ما نراه أقرب إلى الصواب ، وأبعد عن الشطط ، ثم رأينا : (الحرف) يقابل : (القراءة) ثم : (الأصول) أى القواعد العامة التى نراها فى الأغلب الأعم قواعد أصواتية .

وفى علم الأصوات الحرف : (صوت معتمد على مقطع محقق أو مقدر) فالصوت المعتمد على مقطع ــ مخرج ــ هو الصامت ، أو الحرف الصحيح ، أما المعتمد على

(٧٧) السابق .

(٧٨) علم اللغة العام (الأصوات) ، ص ٢٠٢ .

(٧٩) أصوات اللغة ، ص ٢٠ .

مقطع مقدر فهو حروف المد الثلاثة ، قال القسطلانى : (لأنهن لا حيز ولا مقطع لمن محقق)(٨٠) والحق أن معالجة علماء العربية للحركات الطوال والقصار قد شابها بعض الخلط والاضطراب ، فهم ــ على سبيل المثال ــ لم يفطنوا إلى دور اللسان فى نطق ماسموه حروف المد ، أو الحركات القصار.

على أية حال فإن الحرف هو الصوت اللغوى ، سواء أكان من الصوامت أم من الحركات ، قصيرة كانت أم طويلة ، هذا مقتضى القياس والمنطق ، ولكن القدماء جعلوا الحركات القصار مقابلة للسكون ، وهو عندهم نوعان ميت ، وهو الحركة الطويلة ، وحى وهو الصامت الساكن ، الذى يكون نهاية مقطع ، وكأنهم نظروا إلى الرموز الكتابية فحسب ، ولم يدققوا فى النطق الفعلى.

والحرف هنا وجه من أوجه الأصوات العربية ، فهذا الوجه قد يكون ألفا أو باء أو فتحة أو كسرة ، وهلم جرا.

أما الرمز فالمقصود به الرمز الكتابى ، ومعنى هذا أن هذا اللفظ قد ضاق معناه من الكتابة بشكل عام إلى الإشارة إلى حرف بعينه كالسين والشين والضاد مثلاً.

وهناك فروق أيضاً بين الحروف و بين اسمه ، فالسين والشين والزاى مثلاً أسماء لحروف : (سْ ــ شْ(٨١) ــ زْ) أما الرمز ــ وجمعه رموز فهو الشكل الكتابى الذى نشير به إلى الحرف ، مثل : (أ ــ ب ــ ت ــ ث) وهكذا.

سأل الخليل أصحابه يوما : (كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالحرف) وقال : (أقول : (كَهْ ــ بَهْ) فقال أصحابه : (لم ألحقت الهاء ؟) فقال : (رأيتهم قالوا : عِهْ (٨٢) ، فألحقوا هاء ، حتى صيروها يستطاع الكلام بها ، لأنه لايلفظ بحرف)(٨٣).

والحقيقة أن التفريق بين الاسم والحرف صحيح تماما ، فلا غبار عليه ، ولا شبه فيه ، ولا شائبة ، أما نطق الحرف مع هاء السكت هكذا فهو خطأ صراح ، إذ : (عه) التى نطقها الخليل هى ثلاثة أصوات ، العين والكسرة والهاء (٨٤).

---

(٨٠) اللطائف ١/ ١٨٣.

(٨١) وضع السكون هنا معناه أننا نقصد النطق ، دون الاسم أو الرمز.

(٨٢) الفعل وعى يعى عِهْ ، مثل : رأى يرى رَهْ.

(٨٣) اللطائف ١/ ١٨٨.

(٨٤) السابق.

ومن ناحية أخرى نستطيع القول بأن كلمة حرف هنا تغنى عن كلمة : (فونيم) فبدلا من : (فونيم النون) نستطيع أن نقول : (حرف النون) أو(النون) فقط ، فإذا ماأردنا الإشارة إلى عضومن أعضاء فونيم النون سميناه باسمه فنقول :(النون المظهرة ـ النون المخفاة ـ النون المقلبة) أو: (الإظهار ـ الإخفاء ـ الإقلاب) وكذلك بالنسبة للحركات ، طويلها وقصيرها ، فنقول الفتحة ، أى فونيم الفتحة ، أوجنس الفتحة ، كما نقول الرجل والمرأة ، أى جنس الرجل أوجنس المرأة ، فاذا ما أردنا التخصيص خصصنا ، فنقول مثلاً : (الرجل المصرى ـ المرأة المصرية) كذلك نقول : (الفتحة المرققة ـ الفتحةالمفخمة ـ الفتحة الممالة) وهكذا .

ومن ناحية أخرى فلا بأس أن نستخدم ـ عند الاضطرار ـ كلمة فونيم التى يمكن أن تترجم إلى : (وحدة أصواتية ـ عائلة أصواتية) فنقول مثلاً : (فونيم النون أو وحدة النون أو عائلة النون) ثم نستخدم العضوترجمة لكلمة Allophone

أما الصوت فهو كما جاء فى القرآن الصوت على إطلاقه ، أى سواء أكان صوت حمار ناهق أو بلبل صادع أوإنسان ناطق ، وسواء أكان صوت خرير الماء أو هزيم الرعد أو أى صوت تلتقطه الأذن البشرية .

وقد يضيق هذا المعنى العام إلى : (الصوت اللغوى ـ أصوات اللغة ـ صوت الراء ـ صوت الضمة المفخمة) أى الصوت الداخل ضمن إطار لغة ، أية لغة ، سواء أكان على مستوى الفونيم أو العضو، وإن كنت أرى أن : (صوت الراء) معناه أننا نتحدث عن : (حرف الراء أو فونيم الراء) فى حين أن : (صوت الضمة المفخمة) تدل ـ كما هو واضح ـ على عضو من أعضاء الضمة .

وقد تستخدم كلمة : (الأصوات) بهذه الطريقة ، فنقول (الأصوات العربية ـ أصوات العربية ـ الأصوات القاهرية ـ أصوات اللهجة القاهرية) وهنا لا نعنى الأصوات بشكل عام ، بل نقصد أصوات لغة ما أو لهجة بعينها .

بل إننا أحياناً لا نضيف شيئاً إلى كلمة : (صوت) أو: (أصوات) .ولا نعنى غير الصوت اللغوى والأصوات اللغوية ، وهذا ما نفهمه من السياق ، فعالم اللغة إذا استخدم : (صوت ـ أصوات) فلا يقصد غير الصوت اللغوى والأصوات اللغوية إلا إذا نص على غير ذلك ، فأراد أن يشير إلى ظاهرة الصوت بشكل عام .

وهكذا نجد أننا فى الدراسة اللغوية قد نستخدم هذا اللفظ فى صيغة المفرد أو الجمع ، ولكننا نقصد الأصوات اللغوية أو أصوات اللغة كما نقول : (الفرش) ونقصد به : (فرش الحروف) كما رأينا .

وهكذا نستطيع أن نثبت حروف العربية (الأصوات) وأسماءها ورموزها بهذه الطريقة :

	الحرف (الصوت)	الاسم	الرمز
الصوامت :	أْ	الألف	أ
	بْ	الباء	ب
	تْ	التاء	ت
	ثْ	الثاء	ث
	جْ	الجيم	ج
	حْ	الحاء	ح
	خْ	الخاء	خ
	دْ	الدال	د
	ذْ	الذال	ذ
	رْ	الراء	ر
	زْ	الزاى	ز
	سْ	السين	س
	شْ	الشين	ش
	صْ	الصاد	ص
	ضْ	الضاد	ض
	طْ	الطاء	ط
	ظْ	الظاء	ظ
	عْ	العين	ع
	غْ	الغين	غ
	فْ	الفاء	ف
	قْ	القاف	ق
	كْ	الكاف	ك

	لْ	السلام	ل
	مْ	الميم	م
	نْ	النون	ن
	هْ	الهاء	هـ
	وْ	الواو	و
	يْ	الياء	ى
٢ ـ الحركات :	ا	ألف المد	ا
	و	واو المد	و
	ى	ياء المد	ى
	ـَ	الفتحة	ـَ
	ـِ	الكسرة	ـِ
	ـُ	الضمة	ـُ
	ـ	السكون(٨٥)	ـْ



(٨٥) سبق أن أشرنا إلى أن السكون من الناحية النطقية صفر، أولا شيء ، ولكنه من الناحية الوظيفية يوضع مع الحركات .

الفصل الخامس

الهمس والجهر والهمز

وقعت كلمة : (همس) مرة واحدة فى القرآن الكريم ، وذلك فى قوله تعالى :
« وخشعت الأصوات للرحمن ، فلا تسمع إلا همسا »(١) .

أما : (الجهر) فقد جاء فى صيغ عديدة ، كما يلى :

١ ـ « سواء منكم من أسر القول ، ومن جهر به »(٢) .

٢ ـ « ولا تجهر بصلاتك ، ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا »(٣) .

٣ ـ « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر(٤) وأخفى » .

٤ ـ « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض »(٥) .

٥ ـ « وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور »(٦) .

٦ ـ « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ، إلا من ظلم »(٧) .

---

(١) سورة طه ، الآية ١٠٨ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١٠ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ١١٠ .

(٤) سورة طه ، الآية ٧ .

(٥) سورة الحجرات ، الآية ٢ .

(٦) سورة الملك ، الآية ١٣ .

(٧) سورة النساء ، الآية ١٤٨ .

٧ـ « واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة . ودون الجهر[٨] من القول » .

٨ـ « إنه يعلم الجهر من القول ، و يعلم ما تكتمون »[٩] .

٩ـ « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله ، إنه يعلم الجهر، وما يخفى »[١٠] .

١٠ـ « ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهوينفق منه سراً وجهراً »[١١] .

١١ـ « يعلم سركم وجهركم ، و يعلم ما تكسبون »[١٢] .

١٢ـ « وإذا قلتم يا موسى : لن نؤمن لك ، حتى نرى الله جهرة »[١٣] .

١٣ـ « فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله[١٤] جهرة » .

١٤ـ « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون »[١٥] .

١٥ـ « ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم ، وأسررت لهم إسرارا »[١٦] .

أما مادة : (هـ م ز) فقد وردت فى ثلاث صيغ هى :

١ـ « ويل لكل همزة[١٧] لمزة » .

٢ـ « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم »[١٨] .

٣ـ « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين »[١٩] .

---

(٨) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٥ .
(٩) سورة الأنبياء ، الآية ١١٠
(١٠) سورة الأعلى ، الآية ٧ .
(١١) سورة النحل ، الآية ٧٥ .
(١٢) سورة الأنعام ، الآية ٣ .
(١٣) سورة البقرة ، الآية ٥٥ .
(١٤) سورة النساء ، الآية ١٥٣ .
(١٥) سورة الانعام ، الآية ٤٧ .
(١٦) سورة نوح ، الايات ٨ـ ٩ .
(١٧) سورة الهمزة ، الاية ١ .
(١٨) سورة القلم ، الآيه ١١ .
(١٩) سورة المؤمنون ، الاية ٩٧ .

وقد يتساءل القارئ لماذا جمعت هذه الألفاظ الثلاثة : (الهمس والجهر والهمز) فى مكان واحد ؟ ونحن نجيب بأن السبب يكمن فى ارتباط هذه الظواهر الثلاث بالأوتار الصوتية ، فإن مر الهواء من بينهما دون اهتزاز كان الهمس ، وإن مر الهواء مع الاهتزاز كان الجهر، وإذا انغلق الوتران ثم انفتحا فانفجر الهواء كانت الهمزة ، وهكذا .

فهل هناك صلة بين المعانى المعجمية للكلمات الثلاث ــ وبخاصة ما يفهم من الاستخدام القرآنى ــ وبين المعانى الإصطلاحية لكل منها ؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه الآن ، فنقول :

أولاً ــ الهمس :

تدور المعانى المعجمية (٢٠) لهذه الكلمة حول :

١ ــ الصوت الخفى : وهو ما يكون فى خفق الأقدام والأخفاف على الأرض ، وفى أكل العجوز الدرداء أو من يأكل لا يفغر فاه .
أما خفق الأخفاف فقد يكون للإبل على الرمال أو للأسد ، فالأسد الهموس الخفى الوطء ، والهموس من أسماء الأسد لأنه يهمس فى الظلمة ، أو يهمس همساً ، أى يمشى مشياً بخفيه ، فلا يسمع صوت وطئه .
وفى قوله تعالى : « فلا تسمع إلا همسا » الهمس نقل الأقدام إلى المحشر ، أو سعى الناس إلى المحشر ، أى مشيهم فى سكون وخضوع (٢١) .

٢ ــ الكلام الخفى : أى الذى لا يكاد يفهم .

٣ ــ همس الشيطان : ما يوسوسه فى الصدر.

٤ ــ همس إلىّ بحديث أسر ، هامسته ساررته ، تهامس القوم تساروا .

ونردف هذه المعانى المعجمية ببعض ما جاء حول المعنى الاصطلاحى كما يلى :

١ ــ الهمس من الصوت والكلام : ما لا غور له فى الصدر.

---

(٢٠) انظر لسان العرب واساس البلاغة ، مادة : (هـ م س) .

(٢١) الكشاف ٢/٤٤٧ .

٢ ــ الهمس والهميس : حس الصوت فى الفم ، مما لا إشراب له من صوت الصدر، ولا جهارة فى النطق ، ولكنه فى الفم كالسر.

٣ ــ قال سيبويه : (وأما المهموس فحرف ضعف الاعتماد من موضعه حتى جرى معه النفس) (٢٢) قال بعض النحويين : وأنت تعتبر ذلك بأنه قد يمكنك تكرير الحرف مع جرى الصوت ، نحو : (سْسْسْسْ ــ كْكْكْكْ ــ هْهْهْهْ) ولو تكلفت ذلك فى المجهور لما أمكنك (٢٣) .

٤ ــ قال ابن جنى : (فأما حروف الهمس فإن الصوت الذى يخرج معها نفس ، وليس من صوت الصدر، إنما يخرج منسلاً ، وليس كنفخ الزاى ، والظاء والذال) .

٥ ــ الحروف المهموسة عشرة ، جمعت فى عبارة : (حثه شخص فسكت)(٢٤) .

والآن نستطيع أن نتبين الصلة الوثيقة بين المعانى المعجمية والمعانى الاصطلاحية ، فإذا كان الهمس إخفاء الصوت أو الكلام فإن الحروف المهموسة قد أصابها شيء من الخفاء ، لأنها فقدت عنصراً هاماً من العناصر التى تلعب دوراً كبيراً فى قوة إسماع الصوت(٢٥) ، ونعنى به اهتزاز الأوتار الصوتية ، وهذا ما أحس به القدماء ــ كما أشرنا قبل ذلك ــ وكما سيتأكد لنا الآن مرة أخرى .

إن عدم اهتزاز الأوتار يؤدى إلى تقليل درجة الوضوح السمعى للحروف المهموسة(٢٦) ، ومن ناحية أخرى فإننا لو قارنا صوت السين المهموسة : (سْسْسْسْ) بالزاى المجهورة : (زْزْزْزْ) لوجدنا أن الصوت فى الثانية أعلى من الأولى ، لأن الأخيرة تتطلب مجهوداً أكبر حتى يتحقق الجهر ــ مما يترتب عليه زيادة فى اتساع ذبذباتها ــ يقول الدكتور عبد الرحمن أيوب عن موجات الحروف المهموسة : (لا تحظى

---

(٢٢) فى الكتاب : (وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرى النفس معه) ، ٤/ ٤٣٤ .

(٢٣) سر الصناعة ، ١/ ٦٠ .

(٢٤) سبق أن ذكرنا أن القدماء اعتبروا الهمزة والطاء والقاف مهموسة.

(٢٥) علم الأصوات تعريب الدكتور عبد الصبور شاهين ، انظر ص ١٥٧ .

(٢٦) السابق .

كل منها إلا بقدر ضئيل من الطاقة ، فلا تسمع ، وعندما تضيق بعض ممرات الهواء بتدخل الأعضاء الصوتية يحدث نوع من التقوية هو الذى ينتج الأصوات المهموسة كالكاف والفاء والشين)(٢٧) .

و يفرق الدكتور أيوب بين الأصوات المهموسة و بين الأصوات المجهورة فيقول : (إن النغمة المركبة الصادرة فى حالة الأصوات المجهورة قد اكتسبت طاقة أكبر بكثير من تلك التى تصدر عنها الأصوات المهموسة ، وذلك بتأثير اهتزاز الأوتار الصوتية ... وإذن فإن الموجات فى حالة الأصوات المجهورة تكتسب قوة هائلة بتأثير اهتزاز الأوتار الصوتية)(٢٨) .

وهكذا نستطيع القول بأن الهمس أى إخفاء الصوت جاء نتيجة عدم اهتزاز الأوتار الذى أدى إلى :

- درجة أقل فى الوضوح السمعى .
- نقص فى اتساع الذبذبات ، مما يترتب عليه :
  - انخفاض الصوت عن نظيره المجهور.
  - بذل مجهود أقل منه فى نطق الأصوات المجهورة .

وهكذا نجد صلات وثيقة بين المعانى المعجمية والمعانى الاصطلاحية ، كما جاءت عند القدماء .

ولقد سبق أن ناقشنا مفهوم الهمس والجهر عند القدماء ، ونحن نضيف هنا بأنه تأكد لنا بشكل قاطع أن القدماء قد أحسوا بما يحدث للأوتار الصوتية ، من اهتزاز ، أو عدم اهتزاز ، وإن عبروا عما أحسوه وأدركوه بطريقة مختلفة .

بل إن الإنسان العادى يستطيع بسهولة أن يدرك اهتزاز أوتاره الصوتية عند نطق الصوت المجهور إذا وضع يديه على الجزء البارز من حنجرته ، أى تفاحة آدم ، أو جبهته أو صدره أو أذنيه(٢٩) ، فما بالنا بالخليل وسيبويه وابن جنى وابن الجزرى ، وغيرهم

---

(٢٧) أصوات اللغة ، ص ١٠٧ ، ١٢٣ .

(٢٨) السابق ، ص ١٢٤ .

(٢٩) علم الأصوات ، تعريب الدكتور عبد الصبور شاهين ، ص ١٠٩ .

من أعلام العربية الذين كان لهم قدم راسخ فى دراسة أصوات العربية ، هذه الدراسة التى تبقى دائماً معيناً لا ينضب وأساساً متيناً للباحثين المحدثين والدارسين .

ونعود إلى ما جاء عن القدماء فى تعريف الهمس والحروف المهموسة لنرى كيف أحسوا باهتزاز الأوتار، فنقول :

لقد وصف القدماء الهمس بما يلى :

ـ ليس من صوت الصدر.

ـ لا إشراب له من صوت الصدر.

ـ لا غور له فى الصدر.

فهذه الأوصاف تشير بشكل قاطع إلى الإحساس بالجهر بما يجده الإنسان فى صدره من أثر اهتزاز الأوتار الصوتية ، وهو ما عبر عنه القدماء بصوت الصدر أو غور فى الصدر، فى حين أن الهمس ليس من صوت الصدر، أو لا إشراب له من صوت الصدر أو لا غور له فى الصدر.

ووصف الهمس ـ وكذلك الحروف المهموسة ـ أيضاً بما يلى :

ـ جرى معه ـ أى الحرف ـ النفس .

ـ إنما يخرج ـ أى الصوت المهموس ـ منسلاً ، وليس كنفخ الزاى والظاء والذال .

فخروج الصوت المهموس منسلاً ، والذى يخرج معه نفس ، كل هذا يعنى إحساساً بعدم اهتزاز الوترين اللذين يكونان مفتوحين خلال التنفس العادى ، كما يكونان مفتوحين خلال النطق ببعض الصوامت المهموسة(٣٠) .

وقد أكد علماء العربية بأن الصوت المهموس يخرج منسلاً ، أى بسهولة ، وكأنه تنفس عادى ، أو حسب تعبيرهم نفس ، ليس فيه نفخ ـ وهو ما نفسره باهتزاز الوترين ـ أى مثل نفخ الصوامت المجهورة كالزاى والظاء والذال .

وأخيراً وصف الصوت المهموس بأنه :

ـ لا جهارة له فى المنطق .

ـ فى الفم كالسر (الصوت الموشوش) .

(٣٠) علم الأصوات ، تعريب الدكتور عبد الصبور شاهين ، ص ٤٧ .

— يمكنك تكرير الحرف مع جرى الصوت ، ولا يمكن ذلك فى المجهور.

وأعتقد أننا نستطيع أن نؤكد بأن علماء العربية قد أحسوا باهتزاز الوترين أو عدم اهتزازهما ، ومن ثم تمكنوا من تقسيم الحروف إلى مهموسة ومجهورة .

ولكننا بحاجة إلى مناقشة الوصف الأخير الذى أثبتناه هنا للمهموس ، أى إمكان تكرير الحرف مع جرى الصوت ، فإنى أرى ذلك ممكناً بالنسبة للمجهور أيضاً ، فكما أستطيع نطق : (ششش) أستطيع أيضاً نطق : (زْزْزْ) فهل قصد علماء العربية أن الثانى المجهور قد زاد شيئاً طارئاً على الصوت نفسه ، وهو اهتزاز الأوتار ، الذى عبروا عنه بصوت الصدر؟ هذا أمر ممكن .

ثانياً — الجهـر:

ناقشنا المعانى المعجمية للهمس وما قيل فى معناه الاصطلاحى ، ونشير الآن إلى بعض الملاحظات حول الجهر فى القرآن الكريم :

١ — جاءت مادة : (ج هـ ر) فى صيغ عديدة تبلغ الثمانى ، وذلك فى أربعة عشر موضعاً ، كما رأينا ، فى حين أن مادة : (هـ م س) جاءت مرة واحدة ، فى صيغة المصدر فقط ، كما سبق .

٢ — إن القرآن الكريم يستخدم الجهر ضد السر فى مواضع ، وفى آخر يستخدم العلانية ضد السر ، فهل الجهر والعلانية بمعنى واحد ؟ إن هذا مستحيل ، إذ لو كان المعنى واحداً فى كلتا الكلمتين لاستغنى القرآن بإحداهما عن الأخرى .

إذن هناك فارق فى المعنى بين الجهر وبين العلانية ، هذا الفارق يتمثل فى أن الجهر مرتبط بالقول أو القراءة ، فى حين أن العلانية تخص غير ذلك من أشكال العلانية ، تأمل :

— « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به » .

— « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » .

— « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » .

— « وأسروا قولكم أو اجهروا به » .

ـ « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ».
ـ « واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ، ودون الجهر من القول ».
ـ « إنه يعلم الجهر من القول ».
ـ « ولا تجهر بصلاتك. ولا تخافت بها... » يقول الزمخشرى : (بصلاتك) أى بقراءة صلاتك ، على حذف المضاف ، لأنه لا يُلبس ، مِنْ قِبَل أن الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير ، والصلاة أفعال وأذكار ، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرفع صوته بقراءته ، فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا ، فأمر بأن يخفض من صوته ، والمعنى : لا تجهر حتى تسمع المشركين (ولا تخافت) حتى لا تسمع من خلفك (وابتغ بين) الجهر والمخافتة (سبيلاً) وسطاً(٣١).

ـ « سنقرئك فلا تنسى... إنه يعلم الجهر وما يخفى » قال فى الكشاف : (يعنى أنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل ـ عليه السلام ـ مخافة التفلت ، والله يعلم جهرك ـ يا محمد ـ معه... و يعلم ما أسررتم ، وما أعلنتم من أقوالكم ، وما ظهر ، وما بطن من أحوالكم)(٣٢).

ـ « وإذا قلتم يا موسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » فكلمة : (جهرة) حال من التاء والميم فى : (قلتم) أى قلتم ذلك مجاهرين(٣٣).

ـ « فقالوا : أرنا الله جهرة » أى قولا جهرة(٣٤).

ـ « ثم إنى دعوتهم جهارا. ثم إنى أعلنت لهم ، وأسررت لهم إسرارا » فكيف كان ذلك ؟ تجيب بقية الآيات : (فقلت : استغفروا ربكم. إنه كان غفارا...).

ـ « وهو الله فى السماوات وفى الأرض. يعلم سركم وجهركم » أى من الأقوال « و يعلم ما تكسبون » أى من الأفعال ، ولو كان الجهر يشمل الأقوال والأفعال لما كان لبقية الآية : (و يعلم ما تكسبون) من حاجة ، ولكان وجودها زيادة على النص ، لا معنى لها ، وهذا غير ممكن.

---

(٣١) الكشاف ٢/٣٧٨، ٣٧٩.

(٣٢) الكشاف ٤/٢٠٤.

(٣٣) إملاء ما من به الرحمن للعكبرى ١/٣٧.

(٣٤) السابق ١/٢٠٠.

ـ « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً . لا يقدر على شيء . ومن رزقناه رزقناه حسناً . فهو ينفق منه سرا وجهرا » إن كلمة : (جهرا) ليست مرتبطة بالقول هنا ، كما يبدو للبادة ، ولكن السياق هنا سياق قول ، بدليل الآية التى تلت الآية المذكورة ، والتى سنذكرها بعد توضيح سياق الآيتين .

إن الله يضرب لمشركى قريش مثلين للسيد المالك الرازق والمملوك العاجز ، الذى لا يملك ، ولا يكسب ، لتقريب الحقيقة الكبرى التى غفلوا عنها ، حقيقة أن ليس لله مثال ، وما يجوز أن يسووا فى العبادة بين الله وأحد من خلقه ، وكلهم له عبيد(٣٥) .

وقد سبق المثل الأول فى الآية المذكورة ، أما المثل الثانى ، والذى يلى الأول مباشرة فقد جاء فى قوله تعالى : « وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم . لا يقدر على شيء ، وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم »(٣٦) .

فالأبكم ، أى عن قول الخير لا يستوى هو ورجل آخر قوى متكلم ، يأمر بالعدل ، وفى نفس الوقت تجده عاملاً مستقيماً على طريق الخير ، إن عاقلاً لا يسوى بين هذا وبين ذلك ، فكيف يمكن التسوية بين صنم أو حجر أصم أبكم ، لا يملك من أمر نفسه شيئاً وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو القادر العليم ، الآمر بالمعروف الهادى إلى الصراط المستقيم(٣٧) .

وبهذين المثالين تختم الآيات التى بدأت بأمر الله للناس ألا يتخذوا إلهين اثنين ، وختمت بالتعجب من أمر قوم يتخذون إلهين اثنين(٣٨) .

ـ « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ... » الملاحظ هنا أن المقابلة بين : (بغتة) فجأة من حيث لا يتوقعون ، وبين : (جهرة) أى عذاباً ظاهراً(٣٩) عياناً ، وعن الحسن البصرى : (بغتة أو جهرة) ليلاً أو نهاراً(٤٠) .

---

(٣٥) الظلال ٥/ ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٣٦) سورة النحل ، ٧٦ .

(٣٧) الظلال ٥/ ٢٦٤ .

(٣٨) تفسير ابن كثير ٢/ ١٣٣ .

(٣٩) الكشاف ٢/ ١٤ .

(٤٠) السابق .

فهل نقول: إن: (جهرة) فى هذه الآية جاءت على المعنى الأصلى، هذا المعنى الذى ورد فى أساس[41] البلاغة: (جهر الشىء إذا ظهر، وأجهرته أنا، وأجهر فلان ما فى صدره، ورأيته جهرة أى عياناً، وجهر بكذا أعلنه ؟).

وقد تفرع عن المعنى السابق: (قد جهر بكلامه وقراءته، رفع بها صوته، وجهر صوته جهارة، وهو جهير الصوت، وصوت جَهْوَرى، ورجل جَهْوَر وجهْوَرى، وجهْوَرَ الحديث بعدما هيمنه، أظهره بعدما أسره وخطيب مِجْهَر بخطبته) [42].

ومن ثم فإنه يبدو أن المعنى الأصلى للجهر هو العلانية ثم ضاق هذا إلى نوع من العلانية، هو رفع الصوت، ولكن بشرط وجود قرينة تدل على أن المراد جهر الصوت، مثل كلمات: (القول ــ الكلام ــ القراءة... إلخ) أو ما جاء منها، اسماً كان أو فعلاً، كما رأينا.

وقد تكون القرينة سياق الكلام نفسه كما رأينا فى قوله تعالى: «يعلم سركم وجهركم. إنه يعلم الجهر وما يخفى» وهكذا، فإن لم تكن القرينة انصرف الجهر إلى معناه الأصلى، وهو العلانية فقط، دون الارتباط بالصوت.

فهل ترى سيبويه قد اختار لفظ: (الجهر)[43] بسبب ارتباطه بالصوت البشرى، ثم قصر معناه على نوع معين من الأصوات اللغوية ــ كنوع من تضييق المعنى أو تخصيصه إن صح التعبير ــ هذا النوع هو الحروف المجهورة ؟ هو أمر غير مستبعد على الإطلاق.

ولا ننسى أيضاً أن كلمة: (همسا) التى وردت مرة واحدة فى الكتاب الكريم جاءت هى الأخرى مرتبطة بالصوت البشرى أيضاً، تأمل قوله تعالى: «وخشعت

---

(41) مادة: (ج هـ ر).

(42) اللسان، مادة: (ج هـ ر).

(43) الحروف المجهورة عند سيبويه هى: (الهمزة ــ العين ــ الغين ــ القاف ــ الجيم ــ الضاد ــ اللام ــ الراء ــ النون ــ الطاء ــ الدال ــ الظاء ــ الذال ــ الزاى ــ الباء ــ الميم ــ الواو ــ الياء، ألف المد ــ واو المد ــ ياء المد) و يلاحظ إهمال الحركات القصار، و يبدو أن ذلك كان بسبب الاعتماد الكبير على الرسم، كما يلاحظ أن الهمزة والطاء والقاف مهموسة فى نطق المعاصرين، فلعل الأخيرين كانا مجهورين ثم أهمسا، أما الهمزة فلا يمكن القول بأنها كانت مجهورة ألبتة، انظر الكتاب ٤/ ٤٣٤، واللطائف ١/ ٢٠٤ ــ ٢٠٦.

الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا » أى خضعت أصوات العالمين جميعاً وأذعنت لربها الرحمن الرحيم ، وسكنت ألسنة الشعوب والقبائل ، ولم يعد هناك إلا وقع الأقدام الحافية على الأرض ، وهو ما لا تستطيع الأذن أن تلتقطه ، وبخاصة فى هذا الموقف العصيب .

فكأن سيبويه حين اختار لفظى : (الهمس ــ الجهر) فضلاً عن غيرهما لم يكن ذلك بشكل عشوائى ، أو دون إمعان النظر ، بل كان ذلك عن روية وتؤدة مما جعل مصطلحاته فى النهاية دقيقة وموفية بما وضعت له ، فقد رأينا كلمتى الهمس والجهر فى القرآن الكريم مرتبطين بالصوت البشرى .

أما تعريف سيبويه للحروف المجهورة بأنها : (حروف أشبع الاعتماد فى موضعها ، ومنع النفس أن يجرى معها حتى ينقضى الاعتماد ، ويجرى الصوت)(٤٤) فإننا نستطيع أن نفسره بالشكل الآتى :

ــ أشبع الاعتماد فى موضعها : الموضع هنا المخرج ، واشباع الاعتماد معناه أن الهواء الخارج من الحنجرة والمتأثر باهتزاز الوترين يؤثر تأثيراً واضحاً على المخرج يجعلنا نحس كأننا نشبع الاعتماد على هذا المخرج ، بمعنى أن الهواء ، لا يمر عبر المخرج منسلاً متسللاً ، كما يحدث فى الحروف المهموسة ، بل يحس الناطق بنوع من التوتر فى مخرج الحرف المجهور ، وقد أشرنا إلى هذا عند الحديث عن الهمس .

ــ ومنع النفس أن يجرى معه : يعنى أن الهواء الخارج عند نطق الحروف المجهورة ليس نفساً عادياً ، أو مجرد تنفس ، وإنما هو شىء آخر ، إنها عملية تصويت(٤٥) ، ولا يمكن للنفس أن يخرج مع التصويت فى وقت واحد .

ــ حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت : أى الهواء الخارج ليس مجرد نفس ، وإنما تبقى عملية التصويت حتى ينتهى نطق الحرف المجهور ، و ينتهى الاعتماد على المخرج ، لتستمر عملية الكلام ، ويجرى صوت المتكلم بما يلى المجهور من حروف .

وهكذا نخرج من مناقشة الهمس والجهر إلى يقين بأن علماء العربية بشكل عام وسيبويه بشكل خاص قد أحسوا بالفارق بين المهموس والمجهور ، وهو اهتزاز الأوتار

---

(٤٤) الكتاب ، ٤/٤٣٤ .

(٤٥) علم الأصوات ، تعريب الدكتور عبد الصبور شاهين ، انظر ص ٤٧ .

الذى ينتج عملية التصويت فى الأخير وعدم وجود شىء من ذلك فى الأول ، ولذا تمكنوا من التفرقة الناجحة إلى حد كبير بين الحروف المهموسة وبين الحروف المجهورة ، وإن كانوا لم يعرفوا حقيقة الاهتزاز وكنهه ، بسبب نقص المعلومات فى علمى التشريح ووظائف الأعضاء .

ثالثاً ــ الهمز :

لو رجعنا إلى مادة : (هـ م ز) فى القرآن الكريم لوجدنا الصيغ : (هُمَزَة ــ همّاز ــ همزات) وأول ما نلحظه أن القرآن الكريم يتبع الصيغة الأولى بكلمة : (لمزة) فيقول : (ويلٌ لكل همزة لمزة) فما الفرق بين الكلمتين ؟ .

قبل أن نفصل القول حول معنى الكلمة الثانية نشير إلى أن مادة : (ل م ز) جاءت فى غير الموضع المذكور هنا فيما يلى :

ــ « ولا تلمزوا أنفسكم . ولا تنابزوا بالألقاب »(٤٦) .

ــ « ومنهم (٤٧) من يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » (٤٨) .

ــ « الذين (٤٩) يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات » (٥٠) .

فالفعل لمز يلمز ، والمصدر لمز ، و : (لمزة) التاء ليست للتأنيث ، وإنما للمبالغة ، كما فى : (همزة) فيقال : رجل همزة لمزة ، وامرأة همزة لمزة .

أما المعانى المعجمية لكلمة اللمز ــ كما جاءت فى لسان (٥١) العرب ــ فهى كما يلى :

ــ اللمز كالغمز فى الوجه .

---

(٤٦) سورة الحجرات ، الآية ١١ .

(٤٧) من المنافقين .

(٤٨) سورة التوبة ، الآية ٥٨ .

(٤٩) أى المنافقون .

(٥٠) سورة التوبة ، الآية ٧٩ .

(٥١) مادة : (ل م ز) .

ـ تلمزه بفيك بكلام خفي .
ـ يلمز يحرك شفتيه .
ـ أصل اللمز الإشارة بالعين والرأس والشفة مع كلام خفي .
ـ اللمز العيب والطعن .

ومن المعنى الأخير جاء قوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » اللمزة العياب الطعان ، يقول الزمخشري : (بناء فعلة يدل على أن ذلك عادة منه قد ضرى بها ، ونحوها اللُّعنة والضُّحكة)(٥٢) .

أما قوله تعالى : (ولا تلمزوا أنفسكم) فمعناه لا يعب بعضكم بعضكم ، وكذا : (لا يلمزون المطوعين) يعيبون (ومنهم من يلمزك) يعيبك في قسمة (الصدقات) و يطعن عليك(٥٣) .

و يبدو أن المعنى الأصلي للمز كان الإشارة بالعين والرأس والشفتين مع كلام خفي ، غير مفهوم ، وذلك بقصد العيب والطعن ، ثم انتقل هذا المعنى إلى الأثر والنتيجة للإشارة بهذه الأعضاء المذكورة والكلام الخفي ، ألا وهو العيب والطعن كما ذكرنا ، ولذا فاللمز بالمعنى الثاني مجاز علاقته السببية ، وهنا نجد العيب والطعن بالكلام الواضح الصريح ، وليس بالإشارة والكلام الخفي ، كما سنرى .

ومن الجدير ذكره أن اللمز ـ كالغمز ـ يكون في الوجه ، وليس بظهر الغيب ، مثل الهمز ، و يتضح هذا مما يلي :

١ ـ إن إخفاء الكلام سببه عدم الرغبة في إسماع من يعاب ، أو عدم الرغبة في فهمه ما يعاب به ، أو ما يقال في حقه ، كما أن الإشارة بالعين والرأس والشفتين ـ بقصد العيب والطعن ـ ولا يتحقق الغرض منها إلا بأن تكون أمام من نقصده بهذه الإشارة ، وهكذا .

٢ ـ كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقسم غنائم حنين فقال أحد المنافقين : (ألا ترون إلى صاحبكم ، إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ، وهو

---

(٥٢) الكشاف ٤/ ٢٣٢ .

(٥٣) الكشاف ٢/ ١٥٧ ، ١٥٩ .

يزعم أنه يعدل) فرد عليه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قائلاً : (أما كان موسى راعياً ، أما كان داود راعياً ؟ !!) . فلما ذهب قال النبى ــ صلى الله عليه وسلم : (احذروا هذا وأصحابه ، فإنهم منافقون)(٥٤) فنزلت : (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) .

و يفهم من الحوار السابق بين الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ و بين هذا المنافق أن اللمز من هذا الأخير كان جهراً بالقول أمام النبى ، وليس إشارة ، أو كلاماً خفياً .

وكذلك اللمز فى الموضع الثانى : (الذين يلمزون المطوعين ...) كان جهراً بالقول أمام الناس ، فقد روى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم قائلاً : (كان لى ثمانية آلاف ، فأقرضت ربى أربعة ،وأمسكت أربعة لعيالى) وتصدق عاصم بن عدى بمائة وَسْق(٥٥) من تمر، وجاء أبوعقيل الأنصارى بصاع من تمر قائلاً : (بت ليلتى أجر بالجرير(٥٦) على صاعين ، فتركت صاعاً لعيالى ، وجئت بصاع) ، فلمزهم المنافقون ، لمزوا المكثر والمقل على السواء ، فقالوا : (ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ، ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات(٥٧) .

ونعتقد أن ما ذكر حول اللمز يعتبر مقدمة مفيدة للحديث حول الهمز الذى نبدؤه بذكر المعانى المعجمية ، فنقول(٥٨) :

ــ الهمز النخس .

ــ همز الدابة يهمزها همزاً غمزها ، والهماز ما همزت به .

---

(٥٤) الكشاف ٢/١٥٧ ، ١٥٨ .

(٥٥) الوَسْق حمل البعير، والوقر حمل البغل والحمار، مختار الصحاح، مادة : (وس ق) .

(٥٦) الجرير الحبل ، والمراد أنه كان يستقى الماء بالحبل ، لسان العرب ، مادة : (ج رر) .

(٥٧) الكشاف ٢/ ١٦٤ ، وابن كثير ٢/ ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

(٥٨) لسان العرب ، مادة : (هـ م ز) .

— المهامز عصى ، واحدتها مهمزه ، وهى عصا فى رأسها حديدة ، ينخس بها الحمار.

— المهامز مقارع النخاسين التى يهمزون بها الدواب لتسرع ، واحدتها مهمزة ، وهى المقرعة.

— المهمز والمهماز حديدة فى مؤخر خف الرائض.

— همزه دفعه وضربه.

— قيل لبدوى : (أتهمز الفار؟) فقال : (السنور يهمزها).

— همز القناة ضغطها بالمهامز إذا ثُقّفت.

— الهمز العصر ، همزت رأسه ، وهمزت الجوز بكفى ، عصرته.

وهكذا نستطيع القول بأن الهمز معناه ضرب مؤثر موجع فى مكان محدود ، ودون توقع من المضروب ، وهذا ما يشمل : (نخس الدابة أو غمزها — الدفع) ولعل قول البدوى : (السنور يهمزها) خير تعبير عن معنى الهمز ، فكلنا يعرف كيف ينقض القط على الفأر فيضربها ضربة قاتلة تشل حركتها.

ولكن هذا المعنى قد ينتقل من الضرب فى مكان محدود — و بالشكل الذى ذكرنا — إلى الضغط الشديد بالكف أو بالكفين ، حتى يصل هذا الضغط إلى درجة العصر ، كما رأينا فى همزت رأسه ، وهمزت الجوز.

ومن المعانى الطريفة للهمزة النقرة ، إذ هى نتيجة الهمز أى الضرب بالمعول أو الفاس ، أو نحوهما وهنا انتقل المعنى من السبب إلى النتيجة.

ومن ناحية أخرى فإن المعنى السابق للهمز قد ينتقل إلى نوع آخر من الضرب موجع ، ربما لا يتوقعه المرء أيضاً ، والذى يتمثل فيما يلى (٥٩) :

— الهمز : الغض ، الكسر ، العيب ، الغمز ، الغيبة . الوقيعة فى الناس ، وذكر عيوبهم.

— الهامز والهماز : العياب فى الغيب.

— الهُمَزة : الذى يخلف الناس من ورائهم ، و يأكل لحومهم ، وهو مثل العُيَبة ، يكون ذلك بالشدق والعين والرأس.

---

(٥٩) السابق.

فالضرب هنا ليس حسياً فى مكان محدود ، وإنما هو العيب والطعن ، وقد يكون أشد إيلاماً من النوع الأول ، ولقد جاء الهمز فى الكتاب العزيز على المعنى الثانى فى الموضعين : (هماز مشاء بنميم ـ ويل لكل همزة لمزة) فالهماز العياب الطعان(٦٠) ، الذى يزدرى الناس ، و ينتقص بهم(٦١)

والهمزة(٦٢) اللمزة العياب الطعان ، قال فى الكشاف : (المراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم واغتيابهم ، والطعن فيهم) وفى لسان العرب(٦٣) : (المشاء بالنميمة المفرق بين الجماعة ، المغرى بين الأحبة) .

فإذا كان الهمز واللمز معناهما العيب والطعن ، فما الفرق بينهما ؟ الفرق أن الهُمَزة الذى يهمز أخاه فى قفاه ، من خلفه ، واللمز فى الاستقبال ، أو بمعنى آخر الهمزة العياب فى الغيب ، واللمزة العياب فى الحَضْرة .

أما فى الموضع الأخير: (همزات الشياطين) فإن الأمر بحاجة إلى بعض الإيضاح ، فقد جاء فى لسان العرب(٦٤) : (همز الشيطان الإنسان همزا ، همس فى قلبه وسواساً ، وهمزات الشيطان خطراته التى يخطرها بقلب الإنسان ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا استفتح الصلاة قال : « إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » أى الجنون والشعر والكبر ، سماه همزا لأنه جعله من النخس والغمز)(٦٥) .

ففى الحديث الشريف انتقل معنى الهمز من النخس والغمز إلى نتيجة ذلك كله ، وهو الجنون ، وكذلك الأمر بالنسبة للنفخ والنفث .

وفى تفسير: (همزات الشياطين) يقول الزمخشرى : (الهمز النخس ، والهمزات

---

(٦٠) الكشاف ٤/١٢٧ .

(٦١) ابن كثير ٤/٥٤٨ .

(٦٢) يلاحظ أن التاء فى كلتا الكلمتين ليست للتأنيث ، وإنما هى للمبالغة ، كما سبق .

(٦٣) مادة : (هـ م ز) .

(٦٤) السابق .

(٦٥) السابق .

جمع المرة منه، والمعنى أن الشياطين يحثون الناس على المعاصى، ويغرونها عليهم كما تهمز الراضة الدواب حثاً لها على المشى)(٦٦).

وعليه فإن همز الشياطين نوع من النخس، لايدفع إلى السير أو المشى، بل يدفع إلى المعاصى والذنوب أو يدفع إلى الجنون، ومن ثم فإن المعنى هنا بعيد عن العيب والطعن.

والآن نوضح الارتباط بين المعانى المعجمية للهمز والمعنى الاصطلاحى، فنقول:

لقد ذكرنا أن من معانى الهمز الضغط الشديد الذى يصل إلى درجة العصر، ونضيف هنا بأن هذا الضغط ربما لايكون بهذه الشدة، بل يكون بشكل عادى، جاء فى لسان العرب: (الهمز مثل الضغط، ومنه الهمز فى الكلام، لأنه يضغط، وقد همزت الحرف فانهمز) ويبدوا أن الهمز هنا يقابل النبر عند المحدثين، وإن كنت أحس أن القدماء يقصدون الضغط على بعض الحروف بوصفه أمراً يخص بعض الأفراد، أو على أحسن تقدير يخص بعض الحروف العربية، ولم ينظروا إلى النبر بوصفه ظاهرة لغوية، تخص المقطع، لأن المقطع تقسيم للحدث اللغوى لم يمارسه القدماء(٦٧).

وفى كتاب القراءات القرآنية فى ضوء(٦٨) علم اللغة الحديث درس أستاذنا الدكتور عبد الصبور ظاهرة الهمز دراسة معمقة(٦٩)، نقتبس منها هنا العلاقة بين النبر والهمز:

أولاً ــ هناك نوعان من الهمز:

١ ــ الهمزة الأصلية: وهى واحدة من الصوامت العربية.

---

(٦٦) الكشاف ٢/٥٥.

(٦٧) انظر علم الاصوات، تعريب الدكتور عبد الصبور شاهين، ص ١٩٧.

(٦٨) انظر ص ٢١٠، وما بعدها.

(٦٩) وقد استفدنا من هذه الدراسة فى معالجة موضوع الهمز فى رسالتنا للدكتوراه، كما هو واضح فى ص ١٦٥ وما بعدها.

٢ـ الهمزة الوظيفية: وهى التى تأكد وجودها بعد الدراسة والتحليل، وهذه الهمزة قد غلبت بكثرة ورودها وجود الهمزة الأصلية حتى كادت تخفى معالمها، بل إن الهمزة كانت فى أكثر المواقع وظيفة، لا صوتاً صامتاً.

ثانياً ـ من المؤكد أن كل همزة حلت محلها حركة طويلة أو واو أو ياء أو زيدت فى صيغة اشتقاقية، أو صيغة من صيغ الجموع وغيرها، أو ارتجلت دون أصل ترجع إليه تدل على وظيفة هامة فى الفصحى القديمة، أو بعض لهجاتها، وهى النبر.

أما الهمزة التى هى من أصول الكلمة فقد كانت فى الغالب تتحمل النبر، ولكنها ليست صورة من صوره.

ثالثاً ـ العلاقة بين الهمزة والنبر علاقة عموم وخصوص، فالهمز فى الغالب نبر، وهى فى القليل غير نبر، إذ قد تتحول أحياناً بفعل التطور اللغوى إلى فونيم.

على أية حال فقد ضاق معنى الهمز من النبر لأى حرف من حروف العربية إلى هذا الصامت الحنجرى الانفجارى المهموس، لأن هذا الصامت يتطلب إغلاق الوترين وحصر الهواء خلفهما، هذا الهواء الذى يضغط لحيظة لينفتح الوتران، فيخرج الهواء منفجراً، ومن السهل أن يحس الإنسان بضغط الهواء خلف الوترين، وفى صدوره، ومن ثم قال ابن منظور(٧٠): (سميت الهمزة لأنها تهمز فتهت فتنهمز عن مخرجها، هو يهت: إذا تكلم بالهمز) كمن يحشر الهمزات المفتوحة أو الممالة فى كلامه، فيقول:

(ʔa- ʔa- ʔa) —(ʔe- ʔe- ʔe)

وهكذا.

---

(٧٠) مادة: (هـ م ز).

بوصف كهذا، فى قوله تعالى: (واهجرهم هجرا جميلا) ولكن الوصف هنا محدد مذكور، أما الوصف إذا لم يذكر — كما فى موضعى الفرقان — فإن المرء يذهب فى تخيله وتقديره كل مذهب.

ولكن ما معنى الترتيل؟ فى لسان العرب(٨): (الرتَل حسن تناسق الشىء، وثغر رتَل ورتِل حسن التنضيد مستوى النبتة، وقيل مفلج، وقيل بين أسنانه فروج، لا يركب بعضها بعضاً، والرتل بياض الأسنان وكثرة مائها، وربما قالوا: رجل رتل الأسنان بين الرتل إذا كان مفلج الأسنان... والرتَل والرَّتِل الطيب من كل شىء، وماء رتِل بين الرتَل بارد).

ونستطيع الآن أن نقول: إن الرتل فى الأصل حسن تناسق الشىء، أى شىء، والطيب من كل شىء، ثم ضاق المعنى إلى حسن تناسق الأسنان، والطيب من الماء، أى البارد، فإن برودة الماء أدعى إلى طيبه واستساغته، كما أن حسن تناسق الأسنان لا يكون بركوب بعضها بعضاً، بل يكون بحسن تنضيدها، مع فروج بينها، وكونها مفلجة، كما أن طيب الأسنان وجمالها يكون بياضها، فهذا البياض دليل صحة وحيوية.

وقد انتقل المعنى من طيب الأسنان وجمالها وحسن تنسيقها، ومن طيب الماء البارد إلى شىء آخر هو الكلام، ثم انتقل المعنى إلى قراءة القرآن الكريم: (وهو يترسل فى كلامه ويترتل، رتل القرآن ترتيلا إذا ترسل فى تلاوته، وأحسن تأليف حروفه)(٩).

وما أجمل هنا يفصله ابن منظور(١٠) بقوله: (كلام رتَل ورتِل، أى مرتل حسن على تؤدة، ورتل الكلام أحسن تأليفه وأبانه، وتمهل فيه، وترتل فى الكلام ترسل، وهو يترتل فى كلامه ويترسل، والترتيل فى القراءة الترسل فيها والتبيين من غير بغى، والتبيين لا يتم بأن يعجل فى القراءة، وإنما يتم التبيين بأن يبين جميع الحروف، ويوفيها حقها من الإشباع، أى انبذه حرفاً حرفاً،

---

(٨) مادة: (رت ل).

(٩) أساس البلاغة، مادة: (رت ل).

(١٠) اللسان، مادة: (رت ل)، مع بعض التصرف.

ترتيل القراءة التأنى فيها والتمهل، وتبيين الحروف والحركات تشبيهاً بالثغر المرتل، وهو المشبه بنَوْر الأقحوان، يقال: رتل القرآن وترتل فيه، والترتيل فى القرآن التمكث فيه، وهو ضد العجلة).

ومن هذا المعنى الأخير جاء الترتيل فى الموضعين، ففى قوله تعالى: «ورتلناه ترتيلا» قال الزمخشرى(١١): (ومعنى ترتيله أن قدّره آية بعد آية، ووقفة عقيب وقفة، ويجوز أن يكون المعنى وأمرنا بترتيل قراءته، وذلك قوله: «ورتل القرآن ترتيلا» أى اقرأه بترسل، ومنه حديث عائشة — رضى الله عنها — فى صفة قراءته، صلى الله عليه وسلم: (لا كسردكم هذا، لوأراد السامع أن يعد حروفه يَعُدُّها).

وفى تفسير قوله تعالى: «ورتل القرآن ترتيلا» قال ابن كثير(١٢): (اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة، رضى الله عنها: (كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها) وسئل أنس عن قراءة النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال: (كانت مداً) ثم قرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد بسم الله، ويمد الرحمٰن ويمد الرحيم(١٣)، وعن أم سلمة — رضى الله عنها — أنها سئلت عن قراءة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالت: (كان يقطع قراءته آية آية «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين» وعن ابن مسعود (لا تنثروه نثر الدقل(١٤)، ولا تهذّوه(١٥) هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، حركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة).

وهكذا نستطيع القول إن هذه الطريقة من القراءة، أى الترتيل قد أخذها

---

(١١) الكشاف ٣/ ٩٦.

(١٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٤.

(١٣) أى أعطى كل حركة حقها من الزمن.

(١٤) ردىء التمر و يابسة وما ليس له اسم خاص فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع، و يكون منثوراً، اللسان، مادة: (د ق ل).

(١٥) تسرعون فى قراءته، أساس البلاغة، مادة: (هـ ذ ذ).

ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن جبريل عن رب العزة ، فكما علم النبى القرآن ، فقد علمه أيضاً طريقة قراءته ، أو قل الطريقة النموذجية المثلى لقراءته ، وهو ما نفهمه من قوله تعالى : « ورتلناه ترتيلا » أى عن طريق جبريل ـ عليه السلام ـ ولذا كان الأمر : (ورتل القرآن ترتيلا) أى كما علمك جبريل .

وكذلك الأمر بالنسبة للصحابة والتابعين ـ رضى الله عنهم ـ ومن تبعهم من القرون والأجيال ، أخذ الصحابة طريقة الترتيل عن النبى الأكرم ، ثم أخذ عنهم التابعون ، ثم أخذ كل جيل عمن سلفه حتى أصبح الترتيل مصطلحاً من مصطلحات علم القراءات القرآنية ، فهل يمكن أن نتساءل متى كان هذا ؟

إننا نعتقد أن كلمة : (ترتيل) بدأت تستخدم بوصفها مصطلحاً فى علم القراءات على يد ابن الجزرى (ت ٨٣٣ هـ) ، فإننا لا نجد هذا المصطلح قبله ، فقد نظرنا فى السبعة لابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) والتيسر لأبى عمرو الدانى (ت ٤٤٤ هـ) والقصيدة اللامية الشهيرة ، المسماة بحرز الأمانى ووجه التهانى ، المشهورة باسم الشاطبية نسبة إلى ناظمها ولى الله الشاطبى (ت ٥٩٠ هـ) ، نظرنا فى كل ذلك فلم نجد هذا المصطلح .

على أية حال فقد خرج من بطن هذا المصطلح ، أو من عباءته ـ إن صح التعبير ـ ثلاثة مصطلحات ، هى : (التحقيق ـ الحدر ـ التدوير) ونحن نعتقد أن ابن الجزرى كان له فضل كبير فى التعريف بهذه المصطلحات الثلاثة ، مع استفادته ممن سبقه ، واستفادة من جاء بعده من علماء القراءات مما كتب .

وقد انضم مصطلح آخر إلى ما سبق ، وهو مصطلح : (التجويد) فما المقصود منه ، وما الفرق بينه وبين : (الترتيل) وما الفرق بينها وبين المصطلحات الثلاثة التى ذكرناها ؟

نبدأ أولاً بالحديث عن التحقيق ، فنقول : هو مصدر من حققت الشىء تحقيقاً ، إذا بلغت يقينه ، ومعناه المبالغة فى الإتيان بالشىء على حقه ، من غير زيادة فيه ، ولا نقصان منه ، فهو بلوغ حقيقة الشىء ، والوقوف على كنهه ، والوصول إلى نهاية شأنه (١٦) .

---

(١٦) النشر ١/٢٠٥ .

أما التحقيق بوصفه مصطلحاً من مصطلحات علم القراءات فهو: إعطاء كل حرف حقه، من إشباع المد، وتحقيق الهمزة، وإتمام الحركات ـ أى القصار ـ واعتماد الإظهار ـ وليس الإدغام ـ والتشديدات، وتوفية الغنات ـ مفردها غنة ـ وتفكيك الحروف، وهو بيانها، وإخراج بعضها من بعض بالسكت(١٧) والترسل واليسر والتؤدة، وملاحظة الجائز من الوقوف ولا يكون غالباً معه قصر، ولا اختلاس(١٨)، ولا إسكان محرك، ولا إدغامه(١٩).

يقول ابن الجزرى: (فالتحقيق يكون لرياضة الألسن، وتقويم الألفاظ، وإقامة القراءة بغاية الترتيل، وهو الذى يستحسن و يستحب الأخذ به على المتعلمين، من غير أن يتجاوز فيه إلى حد الإفراط، من تحريك السواكن، وتوليد الحروف من الحركات، وتكرير الراءات، وتطنين النونات بالمبالغة فى الغنات)(٢٠).

وقد ذكر ابن الجزرى أنه قرأ بالتحقيق على شيخه أبى عبد الله، محمد بن عبد الرحمن المصرى، وقرأ هذا على شيخه التحقيق، حتى انتهى السند إلى أبى بن كعب الذى ذكر أنه قرأ التحقيق على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: (قرأ النبى علىّ التحقيق) فهذا الخبر يثبت أن قراءة التحقيق توقيفية(٢١)، أى مأخوذة عن سيد الخلق، عن جبريل، عن رب العزة، ومن ثم نرى أن هذا اللفظ استخدم أولاً على لسان الصحابى أبى بن كعب، ثم تواتر استخدامه بعد ذلك على ألسنة القراء وعلماء القراءات، وفى كتب هؤلاء العلماء ومؤلفاتهم.

وقد تفرع عن مصطلح التحقيق المصطلحان الآخران، الحدر والتدوير، أما الأول فهو مصدر حَدَر يحْدُر، فهو من الحدور الذى هو الهبوط، لأن الإسراع من لوازم الهبوط، بخلاف الصعود، الذى يتطلب التأنى والتؤدة.

---

(١٧) عرفنا السكت عند الحديث عن حروف المعجم فى مفتتح السور.

(١٨) اختلاس الحركة القصيرة، أى نطقها بسرعة فتفقد جزءاً من زمنها، انظر التمهيد لابن الجزرى، ص ٥٩.

(١٩) النشر ١/ ٢٠٥.

(٢٠) السابق.

(٢١) النشر ١/ ٢٠٦.

أما الحدر عند علماء القراءات فهو يعني إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها بالقصر والتسكين والاختلاس والبدل(٢٢) والإدغام الكبير(٢٣) وتخفيف الهمز، ونحو ذلك مما صحت به الرواية، ووردت به القراءة، مع إيثار الوصل، وإقامة الاعراب، ومراعاة تقويم اللفظ، وتمكن الحروف، فالحدر إذن ضد التحقيق(٢٤).

وقد حذر ابن الجزرى فى قراءة الحدر من: (بتر حروف المد، وذهاب صوت الغنة، واختلاس أكثر الحركات، ومن التفريط إلى غاية لا تصح بها القراءة، ولا توصف بها التلاوة، ولا يخرج عن حد الترتيل)(٢٥).

أما التدوير فهو التوسط بين المقامين، أى بين التحقيق وبين الحدر، وقد ورد التدوير عن أكثر أئمة القراءة، ممن روى مد المنفصل، ولم يبلغ فيه إلى الإشباع، وهو مذهب سائر القراء، وهو الغالب على قراءاتهم، والكل يجيز الثلاثة(٢٦)، أى التحقيق والحدر والتدوير.

فهذه المصطلحات الثلاثة تختص بدرجة السرعة في القراءة فإن كانت متأنية شديدة الترسل والتمهل كانت تحقيقاً، وإذا كانت سريعة، دون ترسل وتمهل كانت حدراً، والسرعة المتوسطة هى التدوير.

ويلاحظ هنا ما يلى:

١ – يستطيع من يقرأ أن يختار ما يشاء، تحقيقاً أو حدراً أو تدويراً، ولكن لا إفراط، ولا تفريط، بمعنى أن كل حرف أو صوت يجب أن يأخذ وقته، بلا زيادة فى قراءة التحقيق، وبلا نقص فى الحدر، أى أن المسألة هى توزيع نسبى لزمن كل صوت، فإذا كانت الحركة الطويلة تأخذ زمناً مقداره ٢٠ ٪ من الثانية الواحدة فإن الحركة القصيرة تأخذ نصف هذا الزمن، فإذا

---

(٢٢) إبدال الهمزة واواً أو ياء أو ألفاً، انظر النشر، ١/ ٤٦٣، وما بعدها.

(٢٣) إذا كان الصامت الأول محركاً، مثل: (وما هو على الغيب بضنين) فالباء فى كلمة: (الغيب) كانت مكسورة، ثم سقطت الكسرة، كان الإدغام الكبير.

(٢٤) النشر ١/ ٢٠٧.

(٢٥) النشر ١/ ٢٠٧. واللطائف ١/ ٢١٩.

(٢٦) اللطائف ١/ ٢١٩.

نقص زمن الأولى إلى النصف مثلاً نقص زمن الثانية أى القصيرة إلى النصف أيضاً ، وهلم جرا .

٢ــ إن درجة سرعة القراءة تؤثر فى بعض الظواهر الأصواتية الأخرى ، فإذا كانت القراءة تحقيقاً كان لابد من إعطاء الصوت حقه من الزمن ، مع إشباع المد ، أى زيادة زمن الحركات الطوال إلى أقصى حد ممكن ، وتحقيق الهمزة ، والإظهار ــ وليس الإدغام ــ ومراعاة ما جاز من الوقوف ، أى الوقف ما كان جائزاً ممكناً ... إلخ .

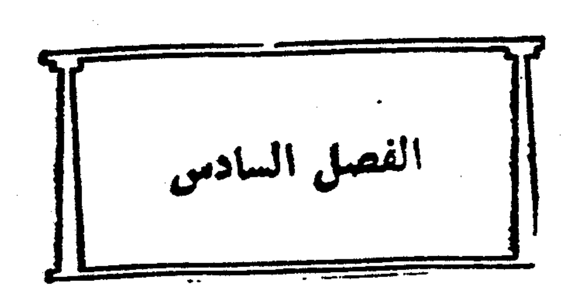
فى حين أن الحدر يتطلب الحد الأدنى من زمن الحرف أو الصوت ، فيكون القصر ــ للحركات الطوال ــ بدلاً من المد ، وإسقاط الحركة القصيرة ــ ما أمكن ــ أو اختلاسها ، مع تخفيف الهمزة أو إبدالها ، والإدغام الكبير ، والميل إلى الوصل ، وليس الوقف وهلم جرا .

ومهما قل الزمن أو زاد فإن جميع الأصوات يجب أن تنطق بطريقة صحيحة ، دون الإخلال بشىء من خصائصها ، سواء أخذت الحد الأقصى للزمن ــ فى التحقيق ــ أو الحد الأدنى ــ فى الحدر ــ أو الحد الأوسط ، وذلك فى قراءة التدوير .

٣ــ لقد ورد التحقيق عن بعض القراء ، ممن تتناسب قراءاتهم مع هذه الطريقة من القراءة ، حيث نجد فيها الإشباع وتحقيق الهمزة ، وإتمام الحركات ، والإظهار ، والسكت ... إلخ ، أما طريقة الحدر فقد وردت عن القراء الذين نجد فى قراءاتهم عدم الإشباع وعدم الميل إلى المد ، مع التسكين ــ ما أمكن ــ واختلاس الحركة والإدغام الكبير ، وإيثار الوصل قدر الإمكان ... إلخ ، وكذلك ورد التدوير عن أكثر القراء الذين تتناسب قراءاتهم مع هذه الدرجة المتوسطة من السرعة ، ممن روى عنهم مد المنفصل مداً متوسطاً .

وبرغم ذلك كله فإن ابن الجزرى يقول عن التدوير : (هو مذهب سائر القراء ، وصح عن جميع الأئمة) أى أئمة القراءة أو القراء ، ويقول القسطلانى : (والكل ــ أى القراء ــ يجيز الثلاثة) أى يجيز التحقيق أو الحدر أو التدوير .

ولكنى أرى أن نلتزم بالطريقة التى وردت عن القارئ ، ولا نرغب عنها إلى غيرها إلا لضرورة ، فإذا كنا نقرأ لورش ، عثمان بن سعيد (ت ١٩٧ هـ) عن نافع بن



الفصل السادس

الترتيل والتلاوة والقراءة

فرق القرآن الكريم بين ثلاث كلمات تبدو معانيها واحدة، أو إن شئت نقل متقاربة، وهى: الترتيل ــ التلاوة ــ القراءة.

أولاً ــ الترتيــل:

وردت مادة: (ر ت ل) فى القرآن أربع مرات، كما يلى:

- كذلك لنثبت به فؤادك، ورتلناه ترتيلا(١).
- أو زد عليه، ورتل القرآن ترتيلا(٢).

وأول ما نلاحظه هنا أن الفعل جاء مع مصدره، غير منفصل عنه إلا بالمفعول به، فهل جاء المصدر فى الموضعين لمجرد توكيد فعله، أو مراعاة للروى فى السورتين، ففى سورة الفرقان الروى هو أحد الحروف المتوسطة: (ل م ن ر) المطلقة الممدودة(٣)، وفى سورة المزمل اللام المطلقة الممدودة تقريباً(٤)؟ إن هذين السببين ليسا كافيين ــ فيما نرى ــ وبخاصة أن الفعل أو المصدر لم يأت واحد منهما بدون الآخر، على الإطلاق.

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٢.

(٢) سورة المزمل، الآية ٤.

(٣) جاء الروى مرة واحدة باء مطلقة ممدودة، وربما كان قرب مخرج الباء من مخرج الحروف المتوسطة هو السبب، كما يدل ذلك على أن اتحاد الروى ليس أمراً ملزماً فى القرآن يأتى قسراً على حساب المعنى.

(٤) لأن الميم الممدودة تشركها فى روى آيتين، كما أن الآية الأخيرة تنتهى بميم مضمومة: (... إن الله غفور رحيم).

ولعل من المفيد أن نبحث عن السياق فى كلا الموضعين، فلعله يشير ــ من قريب أو بعيد ــ إلى السبب الذى نبحث عنه:

١ــ ففى سورة الفرقان: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك، ورتلناه ترتيلا» لقد قالت قريش: (هلا أنزل القرآن على محمد دفعة واحدة فى وقت واحد، كما أنزلت الكتب الثلاثة ــ الزبور والتوراة والإنجيل ــ وما له أنزل على التفاريق ؟!) فأجابهم الله عن الحكمة فى نزوله منجماً مفرقاً: «نقوى بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه» لأن المتعلم إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزءاً عقيب جزء، ولو ألقى عليه جملة واحدة لبَعِل به (٥)، وتعيا بحفظه، والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث كان أمياً، لا يقرأ، ولا يكتب، وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن بد من التلقن والتحفظ، فأنزل عليه منجماً فى ثلاث وعشرين سنة، ومن ناحية أخرى فقد كان القرآن ينزل على حسب الحوادث وإجابات المتسائلين، ولأن بعضه منسوخ، وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا أنزل مفرقاً (٦).

٢ــ فى سورة المزمل: «يا أيها المزمل، قم الليل إلا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا، أو زد عليه، ورتل القرآن ترتيلا» أى الترتيل هنا كان فى جو خاص، فى صلاة الليل حيث يخلو النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى ربه، بعيداً عن حركة النهار وصخبه، وضجيجه.

ومن ثم نستطيع القول ــ بعد النظر إلى السياق فى كلا الموضعين ــ بأن المصدر قد جاء مع فعله إشارة إلى وصف يمكن أن يفهم هنا، أى: (ورتلناه ترتيلا ــ ورتل القرآن ترتيلا) أى الترتيل الصحيح اللائق به، على مهل وتؤده، لتتفكر فيه، وتتدبر، كما تقول مثلاً: (أكرمنى ربى إكراماً) أى إكراماً شديداً أو عظيماً، أو كبيراً، أو حقيقياً، وفى سورة المزمل (٧) صرح القرآن

---

(٥) غَىّ، انظر أساس البلاغة، مادة: (ب ع ل).

(٦) الكشاف ٣/٩٦.

(٧) سورة المزمل، الآية ١٠.

أبى نعيم (ت ١٦٩ هـ) لا نترك التحقيق إلى غيره، فإذا قرأنا لأبى جعفر (ت ١٣٠ هـ) أو ابن كثير (ت ١٢٠ هـ) لم نرغب عن الحدر إلى غيره، فإن تلك القراءات تتناسب مع الطرق التى اختارها القراء أنفسهم، إن حدراً أو تحقيقاً أو تدويراً.

وبعد أن فرغنا من الحديث عن درجة السرعة فى القراءة نعود مرة أخرى للترتيل لنتساءل عن الفرق بينه وبين التحقيق؟ قال فى التمهيد(٢٧): (الترتيل يكون للتدبر والتفكر والاستنباط، والتحقيق يكون لرياضة الألسن، وترقيق الألفاظ الغليظة، وإقامة القراءة وإعطاء كل حرف حقه) وفى النشر: (التحقيق يكون للرياضة والتعليم والتمرين، فكل تحقيق ترتيل، وليس كل ترتيل تحقيقاً)(٢٨).

ومعنى هذا أن من يختار طريقة التحقيق المتأنية المترسلة فإن ذلك يؤدى به — أو ينبغى أن يؤدى به — إلى التدبر والتفكر فيما يقرأ، ومن ثم فالتحقيق هو ترتيل، أو هكذا ينبغى أن يكون، ومن ناحية أخرى فإن القارئ يمكن أن يختار التدوير — أو حتى الحدر — وتبقى قراءته ترتيلاً، إذا صاحبها تدبر وتفكر فيما يقرأ، ومن ثم قال ابن الجزرى: (وليس كل ترتيل تحقيقاً) ومرة أخرى نشير إلى أنه لا إفراط ولا تزيد إذا اخترنا طريقة التحقيق ولا تفريط ولا تَنَقُّص إذا اخترنا الحدر.

وقد ضاق معنى الترتيل إلى نوع من القراءة أطلق عليها: (المصحف المرتل) أو: (القراءة المرتلة) التى سجلت أول مرة بصوت المرحوم الشيخ محمود خليل الحصرى، وقد أمكن الانتهاء من الطبعة الأولى فى يوليو ١٩٦١م: (حيث بدىء بتوزيع المصحف المرتل للمرة الأولى) وذلك برواية حفص عن عاصم(٢٩)، ثم برواية ورش عن نافع، وبعد المرحوم الحصرى سجل المصحف المرتل الشيوخ مصطفى إسماعيل ومحمود البنا ومحمد صديق المنشاوى والشيخ عبد الباسط عبد الصمد — رحمهم الله — والأربعة سجلوا برواية حفص فقط.

---

(٢٧) التمهيد لابن الجزرى ص ٤٩.

(٢٨) النشر لابن الجزرى، ١/ ٢٠٩ وقد نقل نفس العبارة القسطلانى، انظر اللطائف ١/ ٢٢٠.

(٢٩) الجمع الصوتى الأول للقرآن للدكتور لبيب السعيد، ص ٩٠.

وقد أذيع المصحف المرتل من إذاعة القاهرة أول مرة فى الثامن عشر من سبتمبر ١٩٦١م، ثم أنشئت اذاعة القرآن الكريم (٣٠) بالقاهرة التى كانت تذيع المصحف (٣١) المرتل لهؤلاء الخمسة إلى أن رأت الاكتفاء برواية حفص للحصرى، وعدم إذاعة رواية ورش للقارئ نفسه – وهذا شيء مؤسف – ثم بدأت تذيع المصحف المرتل لبعض قراء الإذاعة (٣٢) إضافة إلى الخمسة السابقين.

وأصبح المصحف المرتل نموذجاً لنوع معين من القراءة فى مقابل القراءة المجودة أو المصحف المجود، حيث تعتمد الأولى: (قبل كل شيء على دقة الأداء، وعمق المعرفة النظرية والعملية بقواعد التجويد، أما نصيب الصوت الحسن فى نجاحها فيقع فى المرتبة الثانية، وهذا غير القراءة التنغيمية التى تجعل لحسن الصوت المقام الأول) (٣٣) من الأهمية.

والحق أن القراءة المرتلة هذه تلتزم بقواعد التجويد وأحكام القراءة الصحيحة، بل إننا نعتبر هذه القراءة النموذج الأمثل للأداء القرآنى الصحيح، وبخاصة فى رواية ورش التى سجلها المرحوم الحصرى، يليها رواية حفص للقارئ نفسه، ثم رواية حفص للأربعة الباقين، أما أكثرهم تأثيراً فى السامعين فهو المرحوم المنشاوى.

ومن ناحية أخرى فإن المصحف المرتل أدعى إلى التدبر والتفكر من القراءة الأخرى المجودة، أو المصحف المجود، فهذا المصطلح يجب أن نقف عنده قليلاً حتى تتضح الأمور، فالتجويد: مصدر جود، والاسم منه الجودة ضد الرداءة، ويقال: جود فلان فى كذا، إذا فعل ذلك جيداً، والتجويد فى اصطلاح العلماء: (الإتيان بالقراءة مجودة الألفاظ، بريئة من الرداءة فى النطق، ومعناه انتهاء الغاية فى التصحيح، وبلوغ النهاية فى التحسين، فهو حلية التلاوة وزينة القراءة، وهو إعطاء الحروف حقوقها، وترتيبها مراتبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره،

---

(٣٠) وحذت حذو القاهرة دول إسلامية أخرى فأنشأت إذاعات للقرآن الكريم.

(٣١) الجمع الصوتى للدكتور السعيد، ص ٩٠.

(٣٢) هم الشيوخ أحمد نعينع والشحات أنور وحجاج السويسى ومحمود صديق المنشاوى.

(٣٣) الجمع الصوتى للدكتور السعيد، ص ٩٠.

وتصحيح لفظه ، وتلطيف النطق به على حال صيغته ، وكمال هيئته ، من غير إسراف ، ولا تعسف ، ولا إفراط ، ولا تكلف)(٣٤) .

ولا شك أنه كما يتعبد بفهم معانى القرآن ، وإقامة حدوده يتعبد بتصحيح ألفاظه ، على الصفة المتلقاة عن أئمة القراءة ومشايخ الإقراء ، المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية ، التى لا يجوز مخالفتها ، أو العدول عنها إلى غيرها(٣٥) .

والناس فى ذلك بين محسن مأجور ، ومسىء آثم ، أو معذور ، فمن قدر على تصحيح كلام الله باللفظ الصحيح ، العربى الفصيح ، وعدل إلى الفاسد القبيح ، استبداداً برأيه ، واتكالاً على ما ألف من حفظه ، واستكباراً عن الرجوع إلى عالم يوقفه على صحيح لفظه فإنه مقصر وآثم وفاسق بلا شك ، أما من كان لا يطاوعه لسانه ، أو لا يجد من يهديه إلى الصواب ، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها(٣٦) ، إذ هو داخل فى رخصة الأحرف السبعة التى سبق الحديث عنها ، أو على الأقل فى بقية من هذه الرخصة .

إذن فالتجويد النطق الصحيح للقرآن الكريم ، أو قل هو النطق النموذجى الذى بلغ غاية الصحة ومنتهاها ، والذى يعطى كل حرف حقه ، من المخرج والصفات والزمن ... إلخ ، وعلم التجويد هو العلم الذى يختص بهذه الأشياء كلها .

وفرق بين علم التجويد وعلم القراءات ، فهذا الأخير : (علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوا لناقله)(٣٧) فإذا قلنا مثلاً : (اختلف فى « بشهاب قبس »(٣٨) فعاصم وحمزة والكسائى و يعقوب وخلف بالتنوين على القطع عن الإضافة ، وقبس بدل منه ، أو صفة له ، بمعنى مقتبس أو مقبوس ، والباقون(٣٩) بغير تنوين لبيان النوع ، أى من قبس كخاتم فضة)(٤٠) فإننا فى مجال علم القراءات ،

(٣٤) النشر ، ١ / ٢١٠ ، ٢١٢

(٣٥) اللطائف ١ / ٢١٩ .

(٣٦) النشر ١ / ٢١١ .

(٣٧) اللطائف ١ / ١٧٠ .

(٣٨) سورة النمل ، الآية ٧ .

(٣٩) باقى القراء العشرة .

(٤٠) الإتحاف للبنا الدمياطى ، ص ٣٣٥ .

لأننا نتحدث عن الاختلاف بين القراء ، وننسب هذا الإختلاف إلى من نقله من هؤلاء القراء .

أما علم التجويد فهو دراسة أصوات العربية بهدف النطق الصحيح للقرآن الكريم ، كما جاء فى رواية واحدة لقراءة بعينها ، أو دراسة هذه الأصوات من خلال القدر المشترك بين القراءات، أو دراسة الظواهر الأصواتية التى تخص العربية بشكل عام ، دون أن تكون هذه الظواهر مرتبطة بقراءة ما أو رواية بعينها .

المهم أن دراسة التجويد لا تنصرف إلى الاختلاف بين القراء — كما فى علم القراءات — كما أنها لا تخرج عن المستوى الأصواتى ، إلى غيره من المستويات الصرفية أو النحوية أو الدلالية .

ودراسة التجويد تختلف عن الدراسة الأصواتية التى تدرس أصوات العربية مثلاً ، حيث يمكن دراسة الأصوات فى الفصحى أو للهجات القديمة أو الحديثة ، أما دراسة التجويد فهى مختصة بالأصوات العربية كما تعلمتها الأجيال والقرون ، جيلاً عن جيل ، وقرناً عن قرن ، حتى النبى الأكرم — صلى الله عليه وسلم — عن جبريل عن رب العزة .

إنها ليست دراسة وصفية فقط ، أو دراسة نظرية بهدف الدراسة فقط ، وإنما هى مقدمة وأساس لدراسة معيارية وهدف تعليمى ، هو النطق الصحيح لأصوات العربية كما وعتها الأجيال ، خالفها عن سالفها ، فى محاولة لمحاكاة النطق للقرآنى كما أخذه الصحابة عن النبى — صلى الله عليه وسلم — عن جبريل عن رب العزة .

وكلما حادت الأجيال عن النطق القرآنى الصحيح قام علماء التجويد فنبهوا إلى الخطأ ، وحذروا منه ، كما نرى مثلاً فيما كتبه ابن الجزرى فى التمهيد ، وفى النشر(٤١) ، والقسطلانى فى اللطائف .

وما أحكام التجويد التى نطالعها كثيراً فى مصادر علم التجويد ومراجعه ، وفى تلك الكتيبات — التى انتشرت مؤخراً — إلا ثمرة لهذا المنهج العلمى الأصيل الذى

---

(٤١) اللطائف ١ / ١٨١ — ٢١٩ ، وهنا نلفت الانتباه إلى التراث الأصواتى العظيم فى كتب التجويد والقراءات ، وهو ما يجب أن نفيد منه .

يتابع اللغة على الواقع ، ثم يحصى الأخطاء و يرصدها ، ثم يضع القواعد التى تعالج هذه الأخطاء (٤٢) .

ومن ثم فإننا حين نرى عناية علماء التجويد بالنون الساكنة والتنوين والمد والإدغام ... إلخ ، فإن هذا يعنى أن الأجيال السابقة كانت تخطئ فى هذه القواعد الأصواتية ، و بخاصة فى غير القرآن الكريم ، ولذا كان لابد من إبراز هذه القواعد ومعالجتها حتى تراعى فى النطق القرآنى .

نعود مرة أخرى إلى المقارنة بين الترتيل و بين التجويد لنقول : إن مصطلح التجويد هو الآخر قد انتقل من تجويد النطق إلى تجويد الصوت وتحسينه ، وإن على حساب جودة النطق ، ولقد كان لظهور المصحف المرتل الأثر الكبير فى إبراز المصطلحين (المصحف المرتل — المصحف المجود) وهذا الأخير ظهر فى مقابلة الأول ، وإن كنا لا ننكر أن طريقة المرتل كانت موجودة قبل مشروع المصحف المرتل ، وكانت كلمتا : (مرتل — مجود) موجودتين أيضاً ، ولكنها لم يكتب لها الذيوع والانتشار كما حدث بعد مشروع المصحف المرتل ، كما لم يضف إليها كلمة : (مصحف) ربما لأنه لم يسجل المصحف كاملاً — سواء أكان مرتلاً أم مجوداً — قبل ذلك .

على أية حال فإنه إذا صح أن نطلق المصحف المرتل على هذا النوع من القراءة فإن التعبير الآخر : (المصحف المجود) تعبير مضلل إلى حد بعيد ، إذ المصطلح : (تجويد) إنما هو تجويد النطق (٤٣) ، لا تجويد الصوت ، إلا إذا كان من يقرأ مجيداً للنطق ، معطياً لكل حرف حقه ، يزين قراءته صوت حسن جميل ، وهذا ما نراه عند بعض القراء المصريين الذى يجمعون إلى جودة النطق حلاوة الصوت وجماله ، فإذا ضم القارئ إلى ما سبق تدبراً وتفكراً فيما يقرأ كان من الممكن أن تسمى قراءته : (ترتيلاً) أيضاً .

---

(٤٢) فى هذا المنهج ، انظر التقابل اللغوى وتحليل الأخطاء إعداد محمود إسماعيل وإسحاق محمد الأمين ، معهد اللغة العربية ، جامعة الرياض ، ١٣٩٩ هـ .

(٤٣) كان الطفل فى مصر يحفظ القرآن أولاً ، ثم تأتى مرحلة تالية ، هى مرحلة التجويد ، أى معرفة النطق الصحيح ، وفى هذه الحالة يختار رواية أو أكثر حسبما يتيسر له ، وكان من المشهور أن يقال عمن حفظوا : فلان جود ، وفلان لم يجود ، وفلان جود رواية حفص أو رواية ورش أو جود بالسبع ، أى القراءات السبع ، وهكذا .

ومن ناحية أخرى فإن قارئ المصحف المرتل إذا أجاد النطق أصبح من الممكن أن نقول : إن قراءته جيدة ، أو مجودة ، كما يمكن أن نطلق عليه المصحف المجود ، أما مصطلح : (الترتيل) ووصف : (المرتل) فلا يكون إلا إذا صاحبه تدبر وتفكر من القارئ وانفعال بما يقرأ .

وعلى أية حال فلا بأس أن يبقى هذان التعبيران : (المصحف المرتل ــ المصحف المجود) لكن لابد ــ للمختصين فى العربية على الأقل ــ من معرفة خلفيات هذين التعبيرين ، والإلمام بجذور مصطلحى : (الترتيل ــ التجويد) .

ملاحظة أخيرة نذكرها فى هذا السياق ، وهى الاعتماد فى التجويد والقراءات على المشافهة ، والأخذ من أفواه الشيوخ المجيدين ، وليس الأخذ والنقل عن الكتب ، قال القسطلانى : (والمقرئ هو العالم بها ــ أى القراءات ــ رواها مشافهة ، فلو حفظ الشاطبية مثلاً فليس له أن يقرأ بما فيها ، إن لم يشافهه من شوفه بها مسلسلاً ، لأن فى القراءات شيئاً لا يحكم إلا بالسماع والمشافهة)(٤٤) .

نخلص من كل ما سبق إلى ما يلى :

١ ــ الترتيل حالة نفسية عند من يقرأ ، ولا تكون القراءة ترتيلاً إلا إذا صاحبها تدبر وتفكر من جانب من يقرأ ، هذا مع النطق الصحيح طبعاً .

٢ ــ التجويد هو النطق الصحيح أو النموذجى للقرآن الكريم ، بأية رواية ، أو قراءة .

٣ ــ التحقيق والتدوير والحدر هى درجات سرعة القراءة ، فالتحقيق للتأنى والترسل ، والحدر يقابل التحقيق ، فى حين أن التدوير هو السرعة المتوسطة ، وفى كل لا إفراط ، ولا تفريط .

٤ ــ لقد اختار كل قارئ من القراء العشرة درجة من هذه الدرجات الثلاث ، وأرى أنه يجب الالتزام بالسرعة التى اختارها القارئ ، دون أن نرغب عنها إلى غيرها .

---

(٤٤) اللطائف ١ / ١٧١ .

٥ــ ضاق معنى الترتيل إلى هذه النوع من القراءة التى نسمعها فى المصحف المرتل، وهنا نذكّر بشروط الترتيل من التدبر والتفكر، وفى المصحف المجود انتقل المعنى إلى التجويد فى الصوت، وتنغيم القراءة، وهو ما لا نؤيده، إذ التجويد فى النطق، وليس الصوت.

ثانياً ــ التلاوة :

أول ما نلاحظه هنا أن المصدر: (التلاوة) جاء مرة واحدة، وكذا اسم الفاعل ــ مجموعاً ــ فى (فالتاليات ذكراً) فى حين جاءت الأفعال بأنواعها الثلاثة، الماضى والمضارع والأمر ستين مرة نذكرها جميعاً كما يلى:

ــ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم(٤٥).

ــ قل تعالوا أتل ما حرم(٤٦) ربكم.

ــ ويسألونك عن ذى القرنين، قل: سأتلوا(٤٧) عليكم منه ذكرا.

ــ وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلو القرآن(٤٨).

ــ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان(٤٩).

ــ وما تكون فى شأن، وما تتلو منه من قرآن، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا(٥٠).

ــ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك(٥١).

---

(٤٥) سورة يونس، الآية ١٦.

(٤٦) سورة الأنعام، الآية ١٥١.

(٤٧) سورة الكهف، الآية ٨٧.

(٤٨) سورة النمل، الآيتان ٩١، ٩٢.

(٤٩) سورة البقرة، الآية ١٠٢.

(٥٠) سورة يونس، الآية ٦١.

(٥١) سورة الرعد، الآية ٣٠.

- وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا (٥٢).
- وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك (٥٣).
- أتأمرون الناس بالبر، وتنسون أنفسكم، وأنتم تتلون الكتاب (٥٤).
- نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (٥٥).
- ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر (٥٦) الحكيم.
- تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق، وإنك لمن المرسلين (٥٧).
- تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق (٥٨).
- ربنا وابعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياتك (٥٩).
- كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا (٦٠).
- إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم (٦١) آياته.
- وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا (٦٢).
- هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته (٦٣).
- قد أنزل الله إليكم ذكراً، ورسولاً يتلو عليكم آيات الله (٦٤).

---

(٥٢) سورة القصص، الآية ٤٥.

(٥٣) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

(٥٤) سورة البقرة، الآية ٤٤.

(٥٥) سورة القصص، الآية ٣.

(٥٦) سورة آل عمران، الآية ٥٧.

(٥٧) سورة البقرة، الآية ٢٥٢.

(٥٨) سورة آل عمران، الآية ١٠٨، سورة الجاثية، الآية ٦.

(٥٩) سورة البقرة، الآية ١٢٩.

(٦٠) سورة البقرة، الآية ١٥١.

(٦١) سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

(٦٢) سورة القصص، الآية ٥٩.

(٦٣) سورة الجمعة، الآية ٢.

(٦٤) سورة الطلاق، الآيتان ١٠، ١١.

- رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة (٦٥).
- وقالت النصارى ليست اليهود على شىء، وهم يتلون الكتاب (٦٦).
- من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله (٦٧).
- يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم (٦٨) آياتنا.
- إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور (٦٩).
- ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات (٧٠) ربكم.
- الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته (٧١).
- أفمن كان على بينة من ربه، و يتلوه (٧٢) شاهد منه (٧٣).
- واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها (٧٤).
- واتل عليهم نبأ نوح (٧٥).
- واتل ما أوحى إليك من كتاب (٧٦) ربك.
- واتل عليهم نبأ إبراهيم (٧٧).

---

(٦٥) سورة البينة، الآية ٢.

(٦٦) سورة البقرة، الآية ١١٣.

(٦٧) سورة آل عمران، الآية ١١٣.

(٦٨) سورة الحج، الآية ٧٢.

(٦٩) سورة فاطر، الآية ٢٩.

(٧٠) سورة الزمر، الآية ٧١.

(٧١) سورة البقرة، الآية ١٢١.

(٧٢) أى القرآن الكريم.

(٧٣) سورة هود، الآية ١٧.

(٧٤) سورة الأعراف، الآية ١٧٥.

(٧٥) سورة يونس، الآية ٧١.

(٧٦) سورة الكهف، الآية ٢٧.

(٧٧) سورة الشعراء، الآية ٦٩.

- واتل ما أوحى إليك من الكتاب[٧٨].
- قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم[٧٩] صادقين.
- وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً[٨٠].
- وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله، وفيكم رسوله[٨١].
- وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا: قد سمعنا، لو نشاء[٨٢] لقلنا مثل هذا.
- وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله[٨٣].
- إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا[٨٤].
- وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا: أي الفريقين خير مقاما، وأحسن نديا[٨٥].
- وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا[٨٦] المنكر.
- قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون[٨٧].
- ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون[٨٨].
- وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها[٨٩].

---

(٧٨) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.
(٧٩) سورة آل عمران، الآية ٩٣.
(٨٠) سورة الأنفال، الآية ٢.
(٨١) سورة آل عمران، الآية ١٠٦.
(٨٢) سورة الأنفال، الآية ٣١.
(٨٣) سورة يونس، الآية ١٥.
(٨٤) سورة مريم، الآية ٥٨.
(٨٥) سورة مريم، الآية ٧٣.
(٨٦) سورة الحج، الآية ٧٢.
(٨٧) سورة المؤمنون، الآية ١٠٥.
(٨٨) سورة المؤمنون، الآية ١٠٥.
(٨٩) سور الفرقان، الآية ٧.

— وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم (٩٠) .

— ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا (٩١) .

— وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين (٩٢) .

— وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم ، وكنتم قوما مجرمين (٩٣) .

— وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم : هذا سحر (٩٤) مبين .

— إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير (٩٥) الأولين .

— ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء (٩٦) .

— يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير مُحلي الصيد وأنتم (٩٧) حرم .

— إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليهم يخرون للأذقان (٩٨) سجدا .

— وأحلت لكم الأنعام إلاّ ما يُتلى عليكم (٩٩) .

— وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به ، إنه الحق من (١٠٠) ربنا .

---

(٩٠) سورة سبأ ، الآية ٤٣ .

(٩١) سورة الجاثية ، الآيتان ٧ ، ٨ .

(٩٢) سورة الجاثية ، الآية ٢٥ .

(٩٣) سورة الجاثية ، الآية ٣١ .

(٩٤) سورة الأحقاف ، الآية ٧ .

(٩٥) سورة القلم ، الآية ١٥ ، سورة المطففين ، الآية ١٣ .

(٩٦) سورة النساء ، الآية ١٢٧ .

(٩٧) سورة المائدة ، الآية ١ .

(٩٨) سورة الإسراء ، الآية ١٠٧ .

(٩٩) سورة الحج ، الآية ٣٠ .

(١٠٠) سورة القصص ، الآية ٥٣ .

- أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم (١٠١).
- وإذكرن ما يُتلى في بيوتكنّ (١٠٢) من آيات الله والحكمة.
- والصافات صفا، فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا، إن إلهكم (١٠٣) لواحد.

ومعنى: (تلا — تلّى) تبع، في حين أن معنى: (تلوت عنه) خذلته وتركته، يُقال: (تلا عني يتلو تلوا) تركني وتخلّف عني (١٠٤)، فهي تشبه: (رغب عن ورغب في).

وإذا تعدى بالهمزة تحوّل معناه من تبع إلى تقدم وسبق، في لسان العرب: (تلوته تلوا تبعته، يُقال ما زلت أتلوه حتى أتليته، أي تقدمه، وصار خلفي، وأتليته سبقته (١٠٥).

على أية حال فإن المعنى الأصلي لتلا وتلّى هو تبع، وهذا ما يتضح في أمثلة كثيرة (١٠٦) منها:

- تتالت الأمور تلا بعضها بعضا.
- التلّو ولد الشاة حين يفطم من أمه و يتلوها.
- أتلاه الله أطفالا أتبعه أولادا.
- التوالي الأعجاز لا تباعها الصدور.
- تلّى الرجل صلاته، أتبع المكتوبة التطوع.
- التّلاء الجوار.

وفي القرآن الكريم جاء هذا المعنى في قوله تعالى: « والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها » أي تبعها، وجاء بعدها، وفي موضع آخر: « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته » قال بعض المفسرين المعنى: « يتبعونه حق اتباعه، و يعملون به حق عمله (١٠٧) » فهل: « تلا » معناها: « قرأ » أم: « اتبع » ؟ فإذا كانت بمعنى: « قرأ » فلماذا لم يستغن القرآن بأحدهما عن الأخرى إذا كان المعنى واحدا ؟ ؟.

---

(١٠١) سورة العنكبوت، الآية ٥١.

(١٠٢) سورة الأحزاب، الآية ٢٤.

(١٠٣) سورة الصافات، الآيات من ١ — ٤، والصافات والزاجرات والتاليات أي الملائكة.

(١٠٤) اللسان وأساس البلاغة، مادة: (ت ل ا).

(١٠٥) السابق.

(١٠٦) اللسان وأساس البلاغة، مادة: (ت ل ا).

(١٠٧) انظر ابن كثير ١/ ١٦٣، ١٦٤.

لقد نظرت فى جميع المواضع التى استخدمت فيه هذه الكلمة فى جميع المواضع التى جاءت فى القرآن الكريم والتى أثبتناها جميعا – كما سبق – ونظرت مليا إلى سياق كل موضع على حدة ، سواء بالرجوع إلى المصحف لمعرفة ما سبق هذا الموضع وما تلاه من آيات ، أو بالرجوع إلى تفسير كل موضع على حدة ، فاتضح لى ما يلى :

١– التلاوة نوع من القراءة .

٢– التلاوة لا تكون إلا لنص من كتاب سماوى : (التوراة ، الإنجيل ، القرآن مثلا) .

٣– التلاوة وسيلة لهدف ، هذا الهدف تنفيذ ما أمر الله واتباعه وتطبيقه .

٤– ومن ثم تبدو التلاوة وكأنها قراءة للأوامر الإلهية الواجبة التنفيذ بشكل بدهى ، غير قابل للشك ، أو الجدل .

٥– إذا كان الفاعل معلوما ، أى من يقوم بالتلاوة فإنه فى الغالب الرسول – صلى الله عليه وسلم – وفى مواضع قليلة الله – سبحانه وتعالى – أو أهل الكتاب من اليهود والنصارى أو الأنبياء أو بعض صالحى المسلمين .

٦– عبر القرآن الكريم عن النص السماوى الذى يتلى بالآيات (آيات الله – آيتنا – آياتك – آياته – آيات ربكم – آيات الرحمن – آياتى) وذلك فى معظم المواضع ، وفى أخرى عبر عنها بالكتاب : (كتاب الله – من كتاب – الكتاب) وأحيانا تكون : (صحفا مطهرة) أو : (ذكرا) أو : (الذى أوحينا إليك – ما أوحى إليك من الكتاب – ما أوحى إليك من كتاب ربك) .

وفى بعض المواضع كان الكتاب يسمى صراحة ، كما رأينا فى : (وأن أتلو القرآن – ما تتلو منه من قرآن – فأتوا بالتوراة فاتلوها) وفى المواضع الأخرى كان يشار إلى الكتاب – وهو القرآن – دون التصريح باسمه اعتمادا على ما يفهم من السياق ، كما وجدنا فى : (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم – ويتلوه شاهد منه – إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان – وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم – وإذا يُتلى عليهم قالوا : آمنا) أى القرآن الكريم ، وفى : « قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم – قل : سأتلو عليكم منه ذكرا – نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون – واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها – واتل عليهم نبأ نوح – واتل عليهم

نبأ إبراهيم ـ أحلت لكم بهيمة الأنعام إلاّ ما يتلى عليكم ـ وأحلّت لكم الأنعام إلاّ ما يتلى عليكم » أى فى القرآن الكريم .

و بعد هذه الملاحظات فإن موضعين من المواضع السابقة يحتاجان إلى بعض التفصيل ، وهما :

أولاً ـ قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا » إنها المرة الوحيدة التى تنسب فيها التلاوة إلى للشياطين ، كما أنها المرة الوحيدة أيضا التى يتعدى الفعل بعلى ، فى حين أنه فى باقى المواضع يتعدى بنفسه ، دون حاجة إلى حرف من حروف الجر ؟ .

فما معنى يتلو فى هذا الموضع بالذات ؟ وقبل أن نشير إلى معنى هذه الآية نثبت تلك الرواية التى توضح لنا سبب النزول فنقول : (عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ فكتبوا أصناف السحر: من كان يحب أن يفعل كذا وكذا فليفعل كذا وكذا ، حتى إذا صنفوا أصناف السحر جعلوه فى كتاب ، ثم ختموه بخاتم ، على نقش خاتم سليمان ، ثم دفنوه تحت كرسيه ، واستخرجته بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل ، حتى أحدثوا ما أحدثوا ـ فلما عثروا عليه قال : والله ما كان ملك سليمان إلا بهذا ، فأفشوا السحر فى الناس ، فتعلموه وعلموه ، فلما ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما نزل عليه من الله سليمان بن داود ، وعده فيمن عدد من المرسلين قال من كان بالمدينة من اليهود : ألا تعجبون من محمد ، يزعم أن ابن داود كان نبيا ، والله ما كان إلا ساحرا ! ! » فأنزل (١٠٨) الله : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ... » الآية .

لقد تركوا ما أنزل الله مصدقا لما معهم ، وراحو يتبعون ما يقصه الشياطين عن ملك سليمان ، وما يضللون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان ، إذ يقولون : إنه كان ساحرا ، وانه سخر ما سخر عن طريق السحر الذى كان يعلمه و يستخدمه (١٠٩) .

---

(١٠٨) ابن كثير ١ / ١٣٥ ، ١٣٦ .

(١٠٩) الظلال ١ / ١٢٦ .

وفى تفسير ابن كثير : (اتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذى بأيديهم ـ أى التوراة ـ ومخالفتهم لرسول الله ، محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما تتلوه الشياطين ، أى ماترويه وتخبر به ، وتحدث به على ملك سليمان ، وعداه بعلى ، لأنه تضمن تتلوتكذب(١١٠) » .

وهكذا فإن : « تتلو » هنا قد انتقل معناها إلى تكذب ، فكأن استخدام : « تتلو... على) قصد منه التوبيخ ، فلا هم اتبعوا ما عندهم من التوراة ، كما قال القرآن فى موضع آخر: « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » وكما قال : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به » ولا هم اتبعوا القرآن الكريم .

أى أنهم لم يتبعوا ما يتلوه عليهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قرآن ، بل عارضوه بالتوراة وخاصموه بها ، ولكن التوراة اتفقت مع القرآن(١١١) ، وعاضدته ولم تعارضه فنبذوا هذه التوراة وراء ظهورهم ، وكان ينبغى أن يأتوا بها و يتلوها حق التلاوة ، لا أن يتبعوا ما تتلو الشياطين من كذب وضلال ، قال تعالى : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون(١١٢) ، واتبعوا ما تتلو الشياطين ... » .

ولهذا نظائر فى القرآن الكريم ، منها :

- بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١١٣) .
- وبشر الذين كفروا بعذاب أليم (١١٤) .
- كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ، ويهديه(١١٥) إلى عذاب السعير(١١٦) .

---

(١١٠) ابن كثير ١ / ١٣٦ .

(١١١) السابق ١ / ١٣٤ .

(١١٢) سورة البقرة ، الآية ١٠١ .

(١١٣) سورة النساء ، الآية ١٣٨ .

(١١٤) سورة التوبة ، الآية ٣ .

(١١٥) أى الشيطان .

(١١٦) سورة الحج ، الآية ٤ .

– احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فاهدوهم إلى صراط الجحيم (١١٧) .

ثانيا – قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب » التوراة أو الإنجيل (١١٨) « يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به » أي بالقرآن « ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » .

فكيف يتلى الكتاب حق تلاوته ؟ يجيب ابن مسعود : « والذى نفسى بيده ، إن حق تلاوته أن يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، و يقرأه كما أنزل الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيء على غير تأويله » و يقول الحسن البصرى : « يعملون بمحكمه ، و يؤمنون بمتشابهه ، و يكلونه ما أشكل عليهم (١١٩) لعالمه » .

ومن ثم نستطيع القول بأن التلاوة ليس معناها القراءة فقط أو الاتباع فقط ، وانما هى مزيج منها ، أو بمعنى آخر قراءة يقصد من ورائها التنفيذ والتطبيق لما يقرأ ، وليست هدفا بحد ذاتها ، وانما هى وسيلة وواسطة فقط ، كما أشرنا قبل ذلك .

لقد تحول معنى تلا يتلو من اتبع يتبع إلى قرأ يقرأ ، ولكن بهدف تحقيق المعنى الأول ، وهو الاتباع ، ثم كان هذا المصدر الجديد : « تلاوة » وهو على نفس وزن قراءة ، وكأنما هذا المصدر إشارة إلى أن المعنى هو مزيج من الاتباع والقراءة ، إذ مصدر تلا يتلو – أى بمعنى اتبع – هو تُلُوّ ، مثل سما يسمو سموا ، وليس تلاوة ، وأعتقد أن هذا المصدر الأخير لم يستخدم قبل نزول آية : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حتى تلاوته » .

فهل يجوز أن تكون التلاوة لغير الكتاب السماوى ؟ يبدو أن تلا يتلو تلاوة بمعنى قرأ بهدف التطبيق والتنفيذ لم يستخدم قبل القرآن الكريم ، ومن ثم فهو استخدام قرآنى ، وقد رأيناه قد اقتصر – كما سبق – على الكتاب السماوى ، ومن ثم فلا يجوز لنا أن نجاوزه إلى غير ذلك من نثر أو شعر ، مهما علا وارتقى .

---

(١١٧) سورة الصافات ، الآيه ٢٣ .

(١١٨) الظلال ١ / ١٤٧ .

(١١٩) تفسير ابن كثير ١ / ١٦٣ .

وفى الاستخدام المعاصر ــ وبخاصة فى مجال الإذاعة ــ لا تخرج التلاوة عن آيات القرآن الكريم وسوره، وهو استخدام صحيح ومقبول، أما قول ابن منظور: (١٢٠) وتلوت القرآن تلاوة قرأته، وعم به بعضهم كل كلام، أنشد ثعلب:

واستمعوا قولاً به يكوى النَّطِف (١٢١)

يكاد من يتلى عليه يُجْتَلَف (١٢٢).

فهو ما لا نراه، أما هذا البيت الذى أنشده ثعلب فقد يكون مصنوعا، أو هو على أحسن الأحوال يدخل فى إطار المبالغات الشعرية غير المقبولة، فقد أسكر الشاعر فخره فجره إلى هذه المبالغة باستخدام الفعل: (يُتْلى) استخداما منكرا، لا نوافقه عليه.

ثالثا ــ القراءة:

قرأ يقرأ قراءة وقرآنا، قرأت الشىء قرآنا جمعته وضممت بعضه على بعض، وكل شىء جمعته فقد قرأته، وقد سمى قرآنا لأنه يجمع الآيات والسور فيضمها إلى بعض(١٢٣).

وعليه تكون القراءة عبارة عن عملية جمع وضم، أى للجمل والكلمات والمقاطع والأصوات والحروف، ولكن القرآن الكريم لم يستخدم هذا المصدر: (قراءة) بل استخدم المصدر: (قرآن) الذى أصبح علما على آخر الكتب السماوية، فهذا العلم منقول من المصدر، أو هو تخصيص للمصدر.

أما المصدر: (قراءة) فقد استخدم فى غير القرآن الكريم، وفى نفس الوقت لم نجد المصدر الآخر: (قرآن) يستخدم خارج النص القرآنى، كما سيأتى.

وهذا المصدر: (قراءة) يتخصص معناه أحياناً، حين نقول مثلاً: (قراءة نافع أو قراءة عاصم ...) إلخ، وكذا الجمع قراءات، فنقول مثلاً: (القراءات القرآنية ــ القراءات الصحيحة ــ القراءات الشاذة) أو حتى التعريف دون وصف أو إضافة، كأن نقول: (القراءات).

---

(١٢٠) اللسان، مادة: (ت ل ا).

(١٢١) النطف داء كان يكوى منه الرجل، والنَّطِف من به ذلك الداء، اللسان، مادة: (ن ط ف).

(١٢٢) جلفته بالسيف جلفاً إذا بضعت من لحمه بضعة، أساس البلاغة، مادة: (ج ل ف).

(١٢٣) اللسان، مادة: (ق ر أ).

فالمصدر هنا يتحول من : (القراءة) أية قراءة إلى تلك التى تخص القرآن الكريم وحده ، وعلم القراءات هو العلم الذي يدرس هذه القراءات ، كما سبق ، وفرق بين القرآن و بين القراءات ، فالقرآن هو الوحى المنزل من السماء للبيان والإعجاز ، والقراءات هى اختلاف ألفاظ الوحى المذكور وكيفية هذا الاختلاف (١٢٤) .

والمقرئ هو العالم بالقراءات ، الذى رواها مشافهة ، فلو حفظ كتاباً من كتب القراءات فليس له أن يقرأ بما فيه ، إن لم يشافه من شوفه به مسلسلاً ، لأن القراءات لا تكون إلا بالمشافهة والسماع (١٢٥) .

والقارئ المبتدىء من شرع فى الإفراد إلى أن يفرد ثلاثا من القراءات ، والمنتهى من نقل من القراءات أكثرها وأشهرها (١٢٦) .

ولكننا نرى الآن فى الفصحى المعاصرة ــ وبخاصة فى المجال الإذاعى ــ أن معنى الكلمتين واحد ، فكل من أجاد قراءة القرآن الكريم ، ولو على رواية واحدة يقال له : (قارئ) أو : (مقرئ) وإن كان استخدام الأولى فى مثل : (تلا علينا القارىء الشيخ ...) أكثر شيوعا من الثانية التى نجدها كثيرا فى سياق الفخر والاعتزاز ، فإذا سألت مثلا عن مهنة الشيخ قال لك : « مقرئ » كما أنه إذا كتب لافتة على بيته أو كتب اسمه وصف نفسه بأنه : « مقرئ الإذاعة والتلفزيون » وهكذا .

والرأى فى مثل هذه الأحوال أن نستخدم كلمة : « قارئ » وليس كلمة : « مقرئ » التى تعنى العالم بالقراءات ، ولا ننسى أن نذكر هنا بأن من وصف نفسه بأنه : « قارئ » عليه أن يعرف ــ على الأقل ــ ثلاثا من القراءات الصحيحة ، لا أن يعرف رواية واحدة فقط .

وفرق بين الرواية والقراءة والراوى والقارئ ، فهؤلاء القراء العشرة الذين سميناهم قبل كان لهم تلاميذ كثيرون ، ولكن العلماء اختاروا لكل قارئ تلميذين اثنين فقط ، هذان التلميذان يكونان أكثر ملازمة لشيخهما من غيرهما من التلاميذ ، أو يكونان من أشهر تلامذة الشيخ ، فمثلا نافع اختار له العلماء راو بين اثنين ، هما :

---

(١٢٤) اللطائف ١/ ١٧١ ، ١٧٢ .

(١٢٥) السابق .

(١٢٦) اللطائف ١/ ١٧١ .

١ ــ عثمان بن سعيد ، الملقب بورش[١٢٧] (ت ١٩٧ هـ) .
٢ ــ عثمان بن مينا ، الملقب بقالون[١٢٨] (ت ٢٠٥ هـ) .

وما حدث لنافع حدث لغيره من القراء ، سواء العشرة أو غيرهم ، فهؤلاء التلاميذ هم المعنيون بالرواية ، وما نقلوه عن شيوخهم ــ القراء ــ هي روايات لهذه القراءة التي نقلها شيخهم ، أي القارئ .

ــ أما الرجال الذين نقلوا إلينا هذه الرواية أو تلك فهم الطرق ، والمفرد طريق ، أو بمعنى آخر من يلي الراوي فهو الطريق ، فمثلا رواية ورش نقلت إلينا[١٢٩] بطريقين :

١ ــ طريق يعقوب بن يوسف بن عمرو بن يسار المعروف بالأزرق « ت ٢٩٠ هـ » تقريبا .
٢ ــ طريق أبي بكر محمد بن عبد الرحيم الأصبهاني « ت ٢٩٦ هـ » .

فهذان الرجلان ومن أخذ من تلامذتها ومن تلامذة هؤلاء التلاميذ كل هؤلاء هم الطرق التي جاءت عنها رواية ورش عن شيخه نافع ، أو ما رواه ورش من قراءة نافع .

وعليه فلا يصح أن نقول : « قراءة ورش » لأنه راوٍ ، وليس قارئا ، وإنما الصحيح أن نقول : « رواية ورش ، قراءة نافع » أو : « رواية ورش عن نافع » وهكذا .

والآن نثبت ما جاء عن مادة : « ق ر ا » في الكتاب الكريم :

ــ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان[١٣٠] الرجيم .
ــ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا[١٣١] مستورا .

---

(١٢٧) لقبه به نافع لشدة بياضه .
(١٢٨) لقبه به نافع أيضاً لجودة قراءته ، وكلمة : (قالون) كلمة رومية معناها : (جيد) لأنه عيسى بن مينا كان من سبي الروم .
(١٢٩) اللطائف ١ / ١٠٥ ، ١١٢ .
(١٣٠) سورة النحل ، الآية ٩٨ .
(١٣١) سورة الإسراء ، الآية ٤٥ .

ــ إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه (١٣٢) .
ــ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين (١٣٣) .
ــ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث (١٣٤) .
ــ ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه (١٣٥) .
ــ فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك (١٣٦) .
ــ فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم (١٣٧) .
ــ اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (١٣٨) .
ــ اقرأ باسم ربك الذى خلق (١٣٩) .
ــ اقرأ وربك الأكرم (١٤٠) .
ــ فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه (١٤١) .
ــ فاقرأوا ما تيسر من القرآن (١٤٢)
ــ فاقرأوا ما تيسر منه (١٤٣) .
ــ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون (١٤٤) .
ــ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون (١٤٥) .

---

(١٣٢) سورة القيامة ، الآيتان ١٧ ، ١٨ .

(١٣٣) سورة الشعراء ، الآية ١٩٩ .

(١٣٤) سورة الإسراء ، الآية ١٠٦ .

(١٣٥) سورة الإسراء ، الآية ٩٣ .

(١٣٦) سورة يونس ، الآية ٩٤ .

(١٣٧) سورة الإسراء ، الآية ٧١ .

(١٣٨) سورة الإسراء ، الآية ١٤ .

(١٣٩) سورة العلق ، الآية ١ .

(١٤٠) سورة العلق ، الآية ٣ .

(١٤١) سورة الحاقة ، الآية ١٩ .

(١٤٢ ، ١٤٣) سورة المزمل ، الآية ٢٠ .

(١٤٤) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٤ .

(١٤٥) سورة الانشقاق ، الآية ٢١ .

– سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله (١٤٦) .

– شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن (١٤٧) .

– أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (١٤٨) .

– وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله (١٤٩) عنها .

– وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ (١٥٠) .

– وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن (١٥١) .

– قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو (١٥٢) بدله .

– وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله (١٥٣) .

– وما تكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا (١٥٤) .

– نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن (١٥٥) .

– آلر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (١٥٦) .

– ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم (١٥٧) .

– كما أنزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين (١٥٨) .

---

(١٤٦) سورة الأعلى ، الآية ٦ .

(١٤٧) سورة البقرة ، الآية ١٨٥ .

(١٤٨) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

(١٤٩) سورة المائدة ، الآية ١٠١ .

(١٥٠) سورة الأنعام ، الآية ١٩ .

(١٥١) سورة التوبة ، الآية ١١١ .

(١٥٢) سورة يونس ، الآية ١٥ .

(١٥٣) سورة يونس ، الآية ٣٧ .

(١٥٤) سورة يونس ، الآية ٦١ .

(١٥٥) سورة يوسف ، الآية ٣ .

(١٥٦) سورة الحجر ، الآية ١ .

(١٥٧) سورة الحجر ، الآية ٨٧ .

(١٥٨) سورة الحجر ، الآية ٩١ .

ـــ إن هذا القرآن يهدى للتى هى (١٥٩) أقوم .
ـــ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا (١٦٠) .
ـــ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولّوا أعلى أدبارهم نفورا (١٦١) .
ـــ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن (١٦٢) .
ـــ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهودا (١٦٣) .
ـــ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين (١٦٤) .
ـــ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون (١٦٥) بمثله .
ـــ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل (١٦٦) مثل .
ـــ ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل (١٦٧) مثل ..
ـــ طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (١٦٨) .
ـــ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه (١٦٩) .
ـــ وقال الرسول : يارب ، إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا (١٧٠) .
ـــ وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة (١٧١) .
ـــ طس ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين (١٧٢) .

(١٥٩) سورة الأسراء ، الآية ٩ .
(١٦٠) سورة الإسراء ، الآية ٤١ .
(١٦١) سورة الإسراء ، الآية ٤٦ .
(١٦٢) سورة الإسراء ، الآية ٦٠ .
(١٦٣) سورة الإسراء ، الآية ٧٨ .
(١٦٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٣ .
(١٦٥) سورة الإسراء ، الآية ٥٨ .
(١٦٦) سورة الإسراء ، الآية ٨٩ .
(١٦٧) سورة الكهف ، الآية ٥٤ .
(١٦٨) سورة طه ، الآيتان ١ ، ٢ .
(١٦٩) سورة طه ، الآية ١١٤ .
(١٧٠) سورة الفرقان ، الآية ٣٠ .
(١٧١) سورة الفرقان ، الآية ٣٢ .
(١٧٢) سورة النحل ، الآية ١ .

ــ وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم خبير[١٧٣] .

ــ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون[١٧٤] .

ــ وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن[١٧٥] .

ــ إن الذى فرض عليك القرآن[١٧٦] لرادك إلى معاد .

ــ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل[١٧٧] مثل .

ــ وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذى بين[١٧٨] يديه .

ــ يسۤ والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين[١٧٩] .

ــ وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين[١٨٠] .

ــ صۤ والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق[١٨١] .

ــ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن[١٨٢] .

ــ وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين[١٨٣] عظيم .

ــ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن[١٨٤] . . .

ــ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب[١٨٥] أقفالها .

ــ قۤ والقرآن المجيد[١٨٦] .

---

(١٧٣) سورة النمل ، الآية ٦ .

(١٧٤) سورة النمل ، الآية ٧٦ .

(١٧٥) سورة النمل ، الآية ٩٢ .

(١٧٦) سورة القصص ، الآية ٨٥ .

(١٧٧) سورة الروم ، الآية ٥٨ ، سورة الزمر ، الآية ٢٧ .

(١٧٨) سورة سبأ ، الآية ٣١ .

(١٧٩) سورة يسۤ ، الآيات من ١ ــ ٣ .

(١٨٠) سورة يسۤ ، الآية ٢٩ .

(١٨١) سورة صۤ ، الآيتان ١ ، ٢ .

(١٨٢) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .

(١٨٣) سورة الزخرف ، الآية ٣١ .

(١٨٤) سورة الأحقاف ، الآية ٢٩ .

(١٨٥) سورة محمد ، الآية ٢٤ .

(١٨٦) سورة قۤ ، الآية ١ .

ـ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من (187) مدكر.

ـ الرحمن علّم القرآن(188).

ـ إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون(189).

ـ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا(190).

ـ ورتل القرآن ترتيلا (191).

ـ إنا نحن نزلنا عليك القرآن(192).

ـ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ(193).

ـ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون(194).

ـ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض(195).

ـ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا(196).

ـ قرآنا عربيا غير ذي عوج(197).

ـ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون(198).

ـ ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت(199) آياته.

ـ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا(200).

---

(187) سورة القمر، الآيات 17، 22، 32، 40.

(188) سورة الرحمن، الآيتان 1، 2.

(189) سورة الواقعة، الآية 77.

(190) سورة الحشر، الآية 21.

(191) سورة المزمل، الآية 4.

(192) سورة الإنسان، الآية 23.

(193) سورة البروج، الآية 21.

(194) سورة يوسف، الآية 2.

(195) سورة الرعد، الآية 31.

(196) سورة طه، الآية 113.

(197) سورة الزمر، الآية 28.

(198) سورة فصلت، الآية 3.

(199) سورة فصلت، الآية 44.

(200) سورة الشورى، الآية 7.

ـ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تتقون (٢٠١)
ـ قل أوحى إلى أنه استمع إلى نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا (٢٠٢) .
و يتأكد لنا الآن ما يلى :

١ ـ إن القرآن الكريم لم يستخدم المصدر : « قراءة » ألبتة ، وإنما استخدم المصدر : « قرآن » فقط .

٢ ـ جاءت كلمة : « قرآن » بوصفها مصدرا مرتين فقط ، وذلك فى الآيتين :
ـ إن علينا جمعه وقرآنه .
ـ فإذا قرآناه فاتبع قرآنه .
و باستثناء هذين الموضعين فقد جاءت الكلمة علما على هذا الكتاب السماوى ، وذلك فى ثمانية وستين موضعا .

٣ ـ إذا كان الترتيل يعنى قراءة القرآن مع التدبر والتفكر ، فى حين أن التلاوة تعنى قراءة النص السماوى بقصد التنفيذ والتطبيق فإن القراءة تكون للكتاب السماوى وغيره ، دون النظر للتدبر والتفكر أو التنفيذ والتطبيق : وإنما تكون القراءة لمجرد الاطلاع فقط أو الإطلاع ، وهو ما يظهر جليا من مراجعة الآيات التى وردت فيها مادة : « ق ر أ » تأمل ـ على سبيل المثال ـ ما يلى :
ـ « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » أى إذا قرأت مجرد قراءة ، سواء أكانت ترتيلا أو تلاوة أو غير ذلك .
ـ « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » أى لتقرأه على الناس ـ يا محمد ـ بغية إطلاع الناس عليه ، وتبليغهم به .
ـ « ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه (٢٠٣) أى نطلع عليه .

---

(٢٠١) سورة الزخرف ، الايه ٢ .

(٢٠٢) سورة الجن ، الآية ١ .

(٢٠٣) أرسل بعض وجوه قريش إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكلموه فى أمر دعوته ، فكان مما طلبوه ـ لكى يسلموا ـ أن يصعد فى سلم أمامهم إلى السماء وليأت بدليل على صعوده إلى السماء بأن ينزل لكل واحد رسالة مكتوب فيها إلى كل واحد منهم : (هذا كتاب من الله لفلان بن فلان ...) يجدها فى الصباح موضوعة عند رأسه !!
انظر تفسير ابن كثير ، ٣ / ٦٢ ـ ٦٤ .

٤ ـ جاء الفعل « قرأ » فى صيغة الماضى ست مرات ، جاء مبنيا للمعلوم فى أربع ، ومبنيا للمجهول فى اثنتين ، وفى المضارع خمسا ، وفى الأمرستا ، إضافة إلى المصدر: « قرآن » الذى جاء مرتين ، كما سبق .

وكان المقروء كما يلى :

أ ـ القرآن : وكان ذلك فى اثنى عشر موضعا من المواضع التى جاء فيها الفعل أو مصدره ، أى أكثر من النصف .

ب ـ كتاب الأعمال : وذلك فى ثلاثة مواضع .

جـ ـ الكتاب : أى التوراة ، وكان ذلك فى موضع واحد .

د ـ الكتاب : بمعنى الرسالة ، وهو ما كان فى موضع واحد أيضا .

ولكننا فى موضعى سورة العلق لا نجد مقروءا محددا معينا ، ولا مفعولا ، تأمل قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) .

قال العكبرى : (دخلت الباء لتنبه على البداية باسمه فى كل شىء ، كما قال تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم » فعلى هذا يجوز أن يكون حالا ، أى اقرأ مبتدئا بإسم(٢٠٤) ربك » .

وفى تفسير قوله تعالى : « علم بالقلم ، علّم الانسان مالم يعلم » قال الزمخشرى : « فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده مالم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، وعلى فضل الكتابة ، لما فيها من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت ، ولا قيدت ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولاها ما استقامت أمور الدين ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به ... وقرأ ابن الزبير: علّم الخط بالقلم (٢٠٥) .

ومن ثم يمكن أن نستنتج الآتى :

أ ـ أيما تقرأ فلابد من البدء باسمه تعالى ، هذا هو الأمر الهام الضرورى ، أما ماهية المقروء فلا التفات إليه هنا .

---

(٢٠٤) إملاء ما من به الرحمن ، ص ٢٩٠

(٢٠٥) الكشاف ٤/ ٢٢٤ .

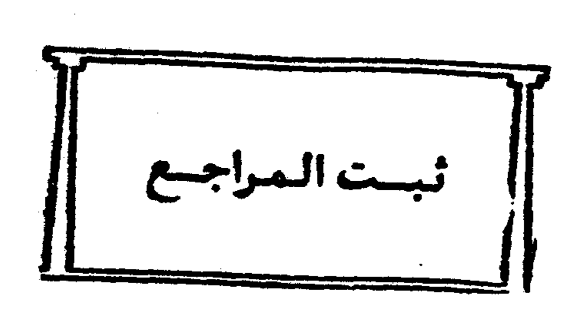
ب ـ إذا كان المقروء لم يذكر فى الموضعين فإن هذا يعنى أن ما يقرأ ليس كتابا سماويا ، أو غيره ، والهدف من القراءة ليس التعبد أو التدبر أو التفكر أو بغية التنفيذ والتطبيق ، وإنما المعرفة فقط ، أى أنها قراءة لما يكتب ويخط بصرف النظر عن محتواه ومضمونه .

جـ ـ إن ارتباط القراءة فى هذا السياق بالكتابة : « اقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم » هذا الارتباط يدل على أن هؤلاء العرب الأميين يُبشّرون بعهد جديد إنها مرحلة مختلفة فى حياة أمة ، يبزغ نجمها ، لا بالقوة والقهر ، ولكن بالعلم والمعرفة ، إنه انتقال من الأمية إلى القراءة والكتابة واستخدام القلم ، لكى يعلم الإنسان ما لم يكن يعلمه ، ولكن بشرط أن يكون كل ما يقرأ أو ما يكتب باسمه تعالى ، وطاعة له واستسلاما لما يأمر به ، دون خروج عن المنهج الإلهى الذى اختطه رب العزة لعباده وأبلغه لهم خاتم الرسل والنبيين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أحمد مصطفى أبو الخير





ثبت المراجع

أولاً ـ المراجع العربية :

(١) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، للبنا الدمياطي (ت ١١١٧ هـ)، مطبعة عبد الحميد حنفي، مصر، ١٣٥٩ هـ.

(٢) أساس البلاغة للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٢ م.

(٣) الإسلام والإنسان للدكتور علي شريعتي، المختار الإسلامي، القاهرة ١٩٨٧ م.

(٤) اصطلاحات الصوفية، للشيخ كمال الدين القاشاني، تحقيق الدكتور كمال جعفر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١ م.

(٥) أصوات اللغة للدكتور عبد الرحمن أيوب، مطبعة الكيلاني، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٨ م.

(٦) الأصوات اللغوية للمرحوم الدكتور إبراهيم أنيس، الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٧١ م.

(٧) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة للدكتور نايف خرما، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨ م.

(٨) الأطفال مرآة المجتمع، النمو النفسي الاجتماعي للطفل في سنواته التكوينية، للدكتور محمد عماد الدين خليل، عالم المعرفة، الكويت، مارس ١٩٨٦ م.

(٩) الأعراب الرواة للدكتور عبد الحميد الشلقامى ، دار المعرفة ، القاهرة ١٩٧٧ م.

(١٠) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، لابن تيمية (ت ٦٢٨ هـ) ، دار الحديث بالأزهر ، القاهرة ١٩٨٣ م .

(١١) الألسنية ، علم اللغة الحديث ، المبادئ والأعلام ، للدكتور ميشيل زكريا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

(١٢) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات ، لأبي البقاء العكبرى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧٩ م .

(١٣) أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك لابن هشام ، دار الفكر ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٤ م .

(١٤) تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين ، دار القلم بالقاهرة ، ١٩٦٦ م .

(١٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) مكتبة التراث الإسلامى ، حلب ، ١٩٨٠م .

(١٦) التقابل اللغوى وتحليل الأخطاء ، لمحمد اسماعيل وإسحاق محمد الأمين ، معهد اللغة العربية ، جامعة الرياض ، ١٣٩٩ هـ .

(١٧) التمهيد فى علم التجويد لابن الجزرى ، (ت ٨٣٣ هـ) تحقيق الدكتور على حسين البواب ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م .

(١٨) جمع الجوامع للسيوطى (ت ٩١١ هـ) مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ م .

(١٩) الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم للدكتور لبيب السعيد ، دار المعارف بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ م .

(٢٠) حد الإسلام وحقيقة الإيمان للشيخ عبد المجيد الشاذلى ، جامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ م .

(٢١) دور الكلمة فى اللغة ، تأليف ستيفن أولمان ، ترجمة الدكتور كمال بشر ، مكتبة الشباب بالقاهرة ، ١٩٧٣ م .

(٢٢) سر صناعة الإعراب لابن جنى ، تحقيق الدكتور حسن هنداوى ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م .

(٢٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، دار الفكر بالقاهرة .

(٢٤) شرح الشاطبية تأليف على محمد الضباع ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، ١٩٦١ م

(٢٥) صحيح مسلم ، عيسى الحلبى بالقاهرة .

(٢٦) العربية لغة العلوم والتقنية للدكتور عبد الصبور شاهين ، دار الاعتصام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .

(٢٧) علم الأصوات ، تأليف برتيل مالبرج ، تعريب الدكتور عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .

(٢٨) علم الصرف ، دراسة وصفية للدكتور محمد أبو الفتوح شريف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .

(٢٩) علم اللغة العام (الأصوات) للدكتور كمال بشر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

(٣٠) العودة إلى الذات للدكتور على شريعتى ، ترجمة الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا ، الزهراء للإعلام العربى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .

(٣١) غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى (ت ٨٣٣ هـ) ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٢٣ م .

(٣٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابورى ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، مطبعة الحلبى بالقاهرة ، ١٩٦٢ م .

(٣٣) فصول فى فقه العربية للدكتور رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .

(٣٤) فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى ، لجنة البيان العربى ، الطبعة السادسة ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

(٣٥) فى ظلال القرآن لسيد قطب ، دار إحياء التراث العربى ، الطبعة السادسة ، بيروت ، ١٩٧١ م .

(٣٦) القرآن وعلومه فى مصر ، للدكتور عبد الله خورشيد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

(٣٧) قراءة الأربعة الشواذ ، دراسة لغوية تاريخية للدكتور أحمد أبو الخير (رسالة دكتوراه) مخطوط بدار العلوم .

(٣٨) قراءة المدينة فى القرن الأول الهجرى ، دراسة تاريخية صوتية للدكتور أحمد مصطفى أبو الخير (رسالة ماجستير) مخطوط بدار العلوم .

(٣٩) القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث للدكتور عبد الصبور شاهين ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

(٤٠) قصص الأنبياء لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) دار التراث العربى للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨١ م .

(٤١) كتاب التيسير فى القراءات السبع لأبى عمرو الدانى ، صححه أوتو برتزل ، مطبعة الدولة ، استانبول ، ١٩٣٠ م .

(٤٢) كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

(٤٣) كتاب سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٢ م .

(٤٤) الكشاف للزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) دار المعرفة ، بيروت .

(٤٥) كلمة حول مشكلة المصطلح العربى للدكتور أحمد أبو الخير ، مجلة كلية التربية بدمياط ، ١٩٨٧ م .

(٤٦) لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ) طبعة بولاق .

(٤٧) لطائف الإشارات لفنون القراءات للقسطلانى (ت ٩٢٣ هـ) ، تحقيق الشيخ عامر عثمان والدكتور عبد الصبور شاهين ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

(٤٨) مختار الصحاح للرازى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩١٦ م .

(٤٩) مختصر فى شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه ، نشره برحشتراسر ، مكتبة المتنى .

(٥٠) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث للدكتور رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .

(٥١) المسند لابن حنبل (ت ٢٤١ هـ) شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

(٥٢) مسند الدارمى ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٥٣) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٥٥ م .

(٥٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقى ، دار الشعب بالقاهرة ، ١٣٧٨ هـ .

(٥٥) نحو أبجدية حساسة للدكتور ابراهيم الدسوقى جاد الرب ، مجلة كلية الدراسات العربية ، جامعة المنيا ، ١٩٨٦ م .

(٥٦) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ، تصحيح ومراجعة الشيخ على الضباع ، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة .

(٥٧) نكت الأعراب فى غريب الإعراب للزمخشرى ، تحقيق الدكتور محمد أبو الفتوح شريف ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٨٥ م .

ثانياً ـ المراجع الأجنبية :

1— An introduction to the pronunciation of English. By A.C. Gimson, The English Languge Book Society, second edition London, 1974.

2— The Holy Quran text, translation and Commentary By A. Yusuf Ali, The Islamic Foundation, Leicester-U.K.,1975.

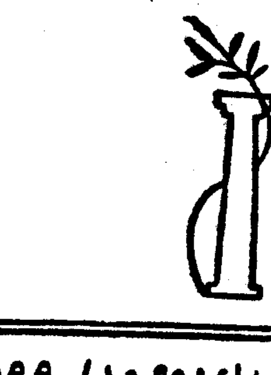
3— Language of Africa,By J. Greenluerg, Indiana University, 1966.

4— Phonetics, By J.D. O'Conner, Penguin Books, 1973.

5— Structural aspects of Language change, By J.M ,Anderson, The University of Calagary, Kanda, Longman Linguistic library, 1980.

6— Tarjamar ma'anonin, ALKUR'ANI MAIGIRMA ZUWA HARSHEN HAUSA,NA Abobakar Mahmoud Gummi.

[ترجمة معانى القرآن الكريم إلى لغة الهوسا ، للشيخ أبى بكر محمود جومى ، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٩ م] .



رقم الايداع : ٢٥١٥ / ١٩٩٠